الوئام بين الأديان من خلال السّيرة النّبويّة : الواقع وطبيعة الخطاب

د. سيف الدّين ماجدي

المعهد العالي لأصول الدين جامعة الزّيتونة

1) مقدّمات ضروريّة

أ- المقدمة الأولى : الوئام عبر خيار الصّدمة والصّدام :

يستطيع المستقرئ لنصوص الأديان أن يتبيّن بوضوح أن المقصد الأسمى للدين هو أن ينتج سلما داخليا في نفس المؤمن كما ينتج سلما بين المؤمن وغيره من الكائنات [1] وإذا حدث السّلام انتعش الوئام. والحقيقة أنّ

1) كثير من شرائع التوراة يعود أصلا تقنينها إلى مقصد مهمّ وهو استتباب السّلم بين الناس وبينهم وبين الحيوان والنبات. انظر في ذلك مثلا : سفر الخروج، الإصحاح الحادي والعشرون،1-36. والإصحاح الثاني والعشرون،1-31. التوراة السامرية، ترجمها من العبرانية إلى العربية، الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق الصوري، تقديم وتعليق أحمد حجازي السقا، ط1، دار الجيل بيروت، 2007/1427، ص 127-129. كما أجمعت الأناجيل الأربعة على اعتبار أهمية السلم ولقي مبدأ السلم مقامه في مؤلفات القدسين المسيحين فقد نوّه به القـدّيس أوغسـطين SainT Augustine في كتابه، مدينة الرب La Cité de dieu. كما نوهت به كتابات القدّيس توماس الاكويني Thomas d'aquin ولا يزال مبدأ السلم معتبرا عند. المسيحيين إلى اليوم فقد قال سماحة البابا يوحنا بولنس

الأديان اليوم مرشّحة إلى أن تقوم بدور فاعل في تجذير قيمة السّلم تحقيقا للوئام والوفاق الإنسانيين. ولقد دقّت – السّاعة التي ينبغي أن تقول الأديان فيها كلمتها، لا سيما بعد أن أشرق على الكرة الأرضية العصر النووي بتداعيات خطيرة ذلك أنّ فرضية قيام حرب نووية ستكون مصداقا لأقصى معاني الكارثة الكونية حيث "سيقتل الناس بعضهم بعضا بالجملة" على حدّ عبارة الشاعر الأمريكي ماك ليش (Mac leich). وممّا يزيد في الخوف من رعب الكارثة الممكنة أنّ عصرنا بدأ يشهد توجّها يروّج لصدام الحضارات [(2)] ويبشر بالعولمة. وتصرّ الأطروحة المركزية لهذا التيار على أن تستسلم كل الهويات الثقافية إلى عملية استنساخ قسرية لكي تتواءم مع الحضارة الغالبة بحيث تتماهى الهويات الثقافية في الهوية الكونية الواحدة وذلك بحسب رأي أصحاب هذا التوجه هو القدر المحتوم لنهاية التاريخ [(3)]. وتذهب هده الأطروحة في البرهنة على ذلك بأنّ كل من يغالب هذا التوجّه فلا سبيل إلى بقائه. وستطوقه آليات العولمة وتنشئه خلقا آخر مستعدا للتواؤم معها رغبة أو رهبة. وفي حين يرى البعض أنّ هده الأطروحة تستبطن مغالطة إيديولوجية حين تزعم بأنّ الطرف المتخلف عن العولمة هو خطر على نماء السوق العالمية وحجرة عثرة في وجه رفاه شعوب الأرض بل قل إنّه عائق يعطل الإبداع العالمي ويخذل انعتاق الإنسان. إذا كان هذا هو رأي النقاد. فإنّ أصحاب "نظرية" نهاية التاريخ يرون أن ما يدعون إليه هو الذي سيؤدي إلى الوئام الواقعي انه الصورة الأمثل لقوام عالمي مستقبلي ذي ثقافة واحدة يشبه إلى حد كبير "اركسترا" متناغمة

الثاني Jean Paul II وهو يتحدّث عن القانون الدّولي "هذا القانون الذي كان يسمّى قانون السّلم والحرب عليه أن يتّجه نحو التحوّل حصريّا إلى قانون السّلم" انظر :

David RUSIE : droit international, 18, Edition Paris, Dalloz, public P1.

أما القرآن، فدعوته إلى السّلم مشهورة ورفضه للبغي والظّلم معلوم وقد اعتبر أنّ الدخول في السّلم والدّفاع عنه هو مشروع المؤمنين قال تعالى : ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" البقرة، 208.

2) أصدق من يمثل هذه الأطروحة هو صدام الحضارات لصامويل هانتينغتن: Samuel HUNTINGTON

3) أصدق من يمثّل هذه الأطروحة هو كتاب "نهاية التاريخ" : عواقب الثورة البيوتكنولوجية : لفوكوياما

تعزف لحنا متسقا لا نشاز فيه وذهب كثير من أساطين العولمة إلى أنّ هذه الصورة الجميلة لوئام الغد المستقبلي وهذا الاقتدار العالمي الواعد تتهدده معوقات. فالأديان لا تقبل بسهولة انتشار حركة السوق العالمية و"بخاصة الدين الإسلامي" [4] وكذلك أحوال سكان الجنوب إذ تفصلهم عن سكان الشمال هوّة اقتصادية ومعرفية ولكل منهما جزيرته الثقافية فلا سبيل إلى وئام حقيقي إلاّ بالصّدام.

ب- المقدّمة الثّانية : الوئام والثّقافة : في نقد خيار الصّدام :

نشأ توجّه عالمي معاصر انطلق من الغرب لينقد نظريّة الصّدام إذ يرى أصحاب هذا التوجّه [5] أنّ اغتيال الهوية الثقافية للشّعوب سواء تمّ باسم حتميّة العولمة أو باسم التقريب بين الشّعوب أو تحت أي غطاء إيديولوجي، فإنه لن يمرّ بردا وسلاما لأنّه سيؤدي إلى ردة فعل عنيفة حفظا للذات إذ من المعلوم أنّ شرايين الذّات تتصلب إذا هددّ كيانها الجامع.

ومن المعلوم أيضا أنّ هويّة الذّات ستبقى القوّة الحيويّة والمعنى الأشم الذي يقاوم بشاعة الإيديولوجيات الاستعمارية ويفضح استكبارها ويفضح رغبتها في الهيمنة على العالم ويفضح تلذّذها ببناء مجد يقوم على قمع الآخر ونفيه. لقد تدثّرت الماركسية من قبل بغطاء أيديولوجي وإن كان يختلف من حيث السّياق والمعنى عن نظرية نهاية التاريخ إلاّ أنّه من حيث النتيجة يصبّ في نفس المصبّ حيث بشّرت الماركسية أيضا بناهية للصراع الطبقي تكون ثروات الأرض فيها ملكا مشاعا بين الناس / جماهير العمال /، حيث يحصل

---

4) عقيل، حسين عقيل، منطق الحوار بين الأنا والآخر، ط 1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2004، ص 73.

5) نقد المفكر الفرنسي : Alain Gresh مواقف كثير من الذين يتبنون منطق صراع الحضارات في كتابه

L'Islam la république et le monde ; Ed. Fayard ; Paris, 2004, p. 33.

الوئام بين أفراد النوع البشري حسا ومعنى. إنه وئام على الطريقة الماركسية، وئام يلغي الثّقافات ويختزلها في ثقافة مستقبليّة واحدة : الثقافة الكونية العمّالية .إنّ الخلل الذّي انتاب النظريتين هو أنّهما يلغيان التنوع الثّقافي الذّي يزخر به العالم ويطمحان كلّ إلى عولمته، عولمة السّوق الطليق أو عولمة المشاعة في الملك وكلاهما يقسر البشرية على أن تلوذ بأحد المشهدين.

إنّ إلغاء الجانب الثّقافي ليس بالأمر الهيّن. فالثّقافة ليست عرضا ولا هامشا إنّها الأصل في تكوين الشّرط البشري إنّها القيم والرّموز والمعارف والدّوافع والعقائد وأساليب الحياة إنّها كينونة وجود ولذلك فإن فصل الإنسان عن ثقافته إنما هو تشويه لجوهر الإنسان. وبناء على هذا الملحظ، عمدت المقاربة النّقدية إلى الانتصار عن وعي إلى الأطروحة التي تقول بأهمية اعتبار الثّقافة عند الحديث عن ترسيخ مبدئي السّلم والوئام ذلك أنّ هذه الأطروحة تستبطن احتراما للإنسان. فعدم إلغاء الهوية الثّقافية للآخر يعني احترامه واحترام اختياراته ويعني أيضا النّضال من أجل رفع الاغتراب عن الإنسان كما يعني كذلك صدقيّة التوجّه نحو التعارف والتعاون. ولذلك يمكنني أن أقول إنّ أطروحة الصّدام بنوعيه الطبقي والأممي غلّبت الجانب النظري الذي يخدم مشروعا ما. فكانت صورة الوئام فيهما مثقّلة بالهيمنة وغاب منها الإنسان. أما أطروحة الثقافة، فقد بنيت على خلفية تقوم على فهم عميق للإنسان. وهذا هو الذي نحتاجه اليوم لتفعيل الوئام حتى لا يبقى مجرّد شعار.

ج- المقدّمة الثالثة : السّيرة النّبوية والوئام : هل تهيمن النبوّة على الوئام ؟

إنّ اختياري لسيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كمنطلق للحديث عن الوئام بين الأديان إنّما كان لأمرين مهمّين يتمثّل أوّلهما في كون السّيرة ترتبط أشدّ الارتباط بالمعطى الديني فهي سيرة نبي صاحب رسالة موحى بها من عند الله. وهي رسالة يعتنقها كثير من البشر في العالم ونحن نعلم ما للدّين من تأثير

إذ "تحوّل الدين والأيديولوجيا خلال القرن الماضي إلى أهمّ العوامل المؤثّرة في التّغيرات الجيوسياسية [6]. ويتمثّل ثانيهما في كون السيرة تتّسق مع ما ذكرته من قبل في أطروحة الثقافة واحترام الإنسان". فمجمل ما سنراه في السيرة يعود إلى مدخل فهم الإنسان. "لقد مثّلت السيرة بما فيها من ممارسات ومواقف وقيم تجربة النبيّ الإنسان الذي عاش في التاريخ زمانا ومكانا حيث قدّر النبي بكل وعي أنّ معه وفي نفس السّياق التاريخي بشر يخالفونه في العقائد والمعارف والدّوافع والرّموز والعادات... ولذلك فإن خطاب الوئام الذي ينبني على أساس نظري محض سيؤول إلى قراءة شعارتية للواقع. والوئام كما المعنا إليه ليس مجرد شعار أنما هو وفاق إنساني ممكن يتجسّم على أرض الواقع حفظا لسنن العمران. ولذلك، نبّه الله تعالى رسوله الكريم بأن يحذر من أن تؤول النبوة إلى هيمنة على الوئام فقال : "لست عليهم بمسيطر" [7] بل إن مرجعيّة الوحي والتي كانت تهدي سلوك محمد صلى الله عليه وسلّم كانت تعمل دائما على ألاّ يحيد هذا السلوك عن سجية ماهو إنساني مهما كان الحال أو الشأن [8] ولا يظنن أحد أنّ محمّدا صلى الله عليه وسلّم ابن الله بل الحقيقة تصرّح أنه ابن الإنسان– ابن عبد الله – . فلا يمكننا بحال إذا أن نوظّف معطى الوحي لنظفي على شخصيّة الرّسول صلى الله عليه وسلم بعدا أسطوريا أو إلاهيا ذلك أنّ هذا التوجّه لو حصل فإنّ الرسالة ستؤول إلى ضرب من القهر باسم القداسة وحينها ستتشوّه الحقيقة القرآنية "أنا بشر مثلكم يوحى إلي" وستسلخ من بعدها الإنساني إذ الوحي الإلاهي يخاطب الإنسان في التاريخ ولا يخاطب أرواحا مفارقة ألا ترى أن الرّوح إذا فارقت الجسد بالموت لم يعد لها أي تعلق بخطاب التكليف ولذلك كلّه فإنّنا لا نجد في آيات القرآن ما نستلهم منه معنى التّاريخ القدسي أو الإنسان المقدّس.

---

6) زخاروفيتش، إيغورين أناتولي : الإسلام والسلام، تونس، 2003، ص 46.
7) الغاشية، الآية 22.
8) انظر في هذا مثلا سبب نزول سورة "عبس".

لقد حصّنت مرجعيّة الوحي سلوك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أن يجنح إلى ردّة فعل أو أن يركن لهوى النفس أو أن يظلم باسم عصبيّة النّسب والقرابة أو باسم عصبيّة السياسة والملك. لقد أضفى الوحي على سلوك النبي صلى الله عليه وسلم معنوية خاصّة جعلته يتفطن إلى هذه المثبطات ويحذر كل الحذر من التّسرع فقد عاش مع البشر وفق منهج أساسه قوله تعالى : "ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (9) حتّى أنّ المتتبع بدقة لسيرته لا يجد أبدا أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد ابتدأ أحدا أو جماعة بالعدوان. ومن البيّن أنّ هذه المعنوية النبوية والمستمدّة من هدى الوحي تحرص على أن يتجلى "المنحى الإنساني للدين."

نعم لم يخف محمّد صلى الله عليه وسلم نبوته بل أعلن عنها ولكن "بطريقة جد إنسانية" (10) لقد أعلن عن نبوته من دون أن ينسى أن يقول "أنا بشر مثلكم يوحى إليّ" (11) وحقيقة أنا بشر مثلكم تعد أصلا مهما لمسألة الوئام وهو أصل به تتحقق المقاصد المهمّة الآتية :

– المقصد الأول : ستجعل هذه الحقيقة من الوئام إمكانا واقعيا فلا يذهبن بخلد عاقل أنّ محمدا كائن أسطوري ولا يظننّ أحد أنّ خاصية الوحي ستجعل من كينونة الرسول جوهرا متعاليا من عالم القدس لا علاقة له بالأرض وبما أنّ محمّدا صلى الله عليه وسلم قد تمثّل بعمق هذا المعنى الإنساني وصرّح به – أنا بشر مثلكم – فإن الوئام عنده سيتّصل بسياقه التاريخي وسيبني على منزع إنساني.

---

9) هود، الآية 85.

10) شبستري محمد مجتهد : ثلاث قراءات في عصر الحداثة للتراث الديني المسيحي، قضايا إسلامية معاصرة، السنة التاسعة، العدد 30، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 1425ه/ 2005 م، ص 186.

11) الكهف الآية 110.

- المقصد الثاني : بعد أن ساهمت حقيقة - أنا بشر مثلكم - في نفي "القداسة" عن محمّد صلى الله عليه وسلم فإنّها وصلتنا بمقصد آخر وهو أنّ الرّسول الإنسان سيبني وئامه مع الآخر في أرض الواقع فالوئام حيثيّة تكون حيويتها مستمدة من التواصل مع النّاس ولذلك فإنّ تبشير الرسول بنبوته لم يمنعه من أن يعيش راهن مجتمعه كإنسان عادي حيث ساهم "في جميع الأنشطة الإنسانيّة المألوفة" (12) كان عليه السلام يروم أن تكون سيرته مع الناس علائقية فعاش نبوّته شاهدا على التاريخ وسيبقى كذلك حتّى بعد أن ترك الدنيا فقبره لم يرفع وموضعه معلوم ووحيه محفوظ وهديه لم يتلاش فأغلبه مدوّن ولقد استطاع هذا الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أن يملأ أصحابه بهذا الوعي التاريخي حتى أنه لمّا انتقل إلى جوار ربّه استطاع أصحابه أن يفرقوا بين مقام محمّد الأسطورة ومقام محمّد النبي الإنسان حيث رفضوا المقام الأسطوري وأقرّوا أنّه رحل رغم عظمة مقامه بينهم وتأثيره فيهم لقد عاش محمّد صلّى الله عليه وسلم نبوته بطريقة إنسانية وفهم أصحابه الرّسالة "بطريقة إنسانية تماما "أي أنهم فهموا" أن الإنسان هو الذي يبعث رسولا" (13)

- المقصد الثالث : إنّ حقيقة أنا بشر مثلكم تستبطن معنى خاصّا ومعنى كونيّا في آن واحد : أما المعنى الخاص فيتمثّل في كون الرسول إنسانا وأما الكوني فيتمثّل في أنّ الرسول الإنسان سيحترم خصوصيات الآخرين وسيعمل على التقريب بين البشر على أساس وفاق إنساني ينمّ عن فهم للإنسان يصل إلى ما سماه القرآن بالتكريم، تكريم الإنسان "ولقد كرّمنا بني آدم" (14). والتّكريم حقيقة وجوديّة يشهد بها كلّ من يعرف الإنسان. وهذه الحقيقة زيادة عن كونها من مرتكزات الإنسان الخلفية فإنّها المؤشّر الذي ينبّه الغافلين لمبدأ احترام الإنسان. فمن تحقق فيه التكريم بصفته التكوينيّة فمن الظلم أن يذل أو يهان أو

---

12) شبستري محمد مجتهد : م ن، ص ن.

13) م ن، ص ن.

14) الإسراء، الآية.70.

يستعبد. والخطر على الوئام أن تنسى هذه الحقيقة. إنّ الذي يخرّب الوئام هو أن تنسى قوانين البشر ومنطق البشر أنّ الإنسان كائن مكرّم.

2) نماذج من الوئام من خلال السيرة : مستوى الأفراد

أ- إلى ورقة بن نوفل : الحدث والدلالة

إنّ أولى الخطوات على طريق الوئام اتّجهت إلى الإنسان فحين أشرق الوحي في دورته الخاتمة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. كان للحدث جلاله وجماله ، هيبته وأنواره إنّها عودة لمعطى الوحي من جديد وتجلّ يختم ظاهرة النبوة ويدعو إلى إحياء المعنى التوحيدي الذي ناضل الأنبياء من أجل تأصيله في التاريخ.إنّها لحظة أن يرتبط محمّد صلّى الله عليه وسلّم. بالسّند النّبوي رجالا وبلاغا، وبالتحديد إنّها لحظة الوصل بين عيسى عليه السّلام ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم. إنّ الذي ربط هذا الوصل هو ذلك الشيخ النصراني الذي صدقت نصرانيته والذي كان على علم بما في الإنجيل والتوراة. إنّه ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى والذي قالت المصادر بشأنه أنّه "كتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب" (15) استمع ورقة إلى خبر محمّد صلّى الله عليه وسلّم ففهم أنّ ما جرى إنّما هو حيثيات تدلّ على أوّل لقاء بملك الوحي. قال ورقة "هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى" (16) فأصغى محمد صلى الله عليه وسلم الى قول ورقة.

لقد وضع ورقة الأمور في نصابها فبين بحكمة العارف بقانون النبوة أنّ ما وقع لمحمد صلى الله عليه وسلم يتواءم كل التواؤم مع معطى الوحي الذي

---

15) البخاري، محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، كتاب بدأ الوحي، حديث رقم 3، ص 14.

16) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، م1 ،ط3، تحقيق جماعي، المكتبة السلفية، القاهرة 1407، ص34-35، وانظر، البخاري، م ن، ص ن.

جاء لموسى وعيسى. فكأنّما قال له إنكّ في هذا الشأن توأم موسى وعيسى فكلكم مرتبط في رسالته بالله بواسطة الناموس – صاحب سر الخير – جبريل عليه السلام. تواصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حد عنفواني مع كلام ورقة حيث فهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ في الأمر جدّ ورسالة شاملة جامعة وقد تبيّن لمحمد الدليل على ذلك من خلال كلام ورقة حيث أنّ ورقة لم يقل – هذا الناموس الذي نزل على عيسى – مع كون ورقة نصرانيا بل قال "هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى" ذالك أنّ كتاب موسى عليه السلام قد توسّع في الشرائع والأحكام واشتمل على أكثرها بخلاف كتاب عيسى وبما أنّ محمدا، بحسب علم ورقة، سيحظى بشريعة واسعة اقتضت المناسبة أن يذكر موسى. اطمأنّ قلب محمد صلى الله عليه وسلّم ولم يخرج من عند ورقة إلاّ وقد ذهب عنه روع جلال الواقعة.

والّذي يهمّنا من هذا الاجتماع بورقة حيثية الوئام فنحن إذا نظرنا إلى هذا الاجتماع من خارج بدت لنا صورة الوئام على شكل تواصل إنساني حميمي وصادق بين رجلين كل له دينه في مكان شحّ فيه حوار الأديان، أمّا إذا نظرنا إلى حيثية الوئام من داخل أي إذا أردنا أن نكتشف خلفياتها ودوافعها الموجّهة تبين لنا أنها تصدر عن منزع إنساني فمحمد صلى الله عليه وسلّم يستمع إلى مخاطبه بصفته البشريّة حيث أنّه لم يستوعب بعد أنّه نبي مرسل.

ثم إنّه عليه السّلام صدّق ما قاله ورقة وهو ما يدل على أنّ له ثقة في صدق الإنسان لا سيما إذا كان هذا الإنسان من أهل الفضيلة والحكمة .إن هذا المنزع الانساني في حادثتنا هذه هو الذي ساعد على نجاح الوئام ومتّن التّواصل وعضّد البحث عن الحقيقة.

ب- الوئام ومحاورة الوثنيّين من قريش : الحدث والدّلالة

كاد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخاطب قريش فردا فردا. بدأ بعشيرته الأقربين ثمّ وسّع الحوار ليبلغ صداه كلّ قريش وكلّ أحلاف قريش

فهذا الرّسول صلى الله عليه وسلم يقف في مكّة منذ بواكير دعوته يحاور خاصّة سادة قريش مجتمعين وأفذاذا [17] رغم علمه بما يتفوّهون به من خطاب غليظ تجاهه فقد اعتبروه يحكي أساطير [18] ويروج اختلاقات ويتفوّه باللغو [19] وينفث تعويذات سحر [20] ورغم ذلك لم يقطع الرّسول صلى الله عليه وسلّم ودّه لهم "وكان عليهم حريصا" [21] بل ذهب معهم إلى أقصى معاني الاحترام حيث دعاهم إلى أن يلتزم الجميع بمبدأ حرية المعتقد " لكم دينكم ولي دين" [22] ووجّه أنظارهم إلى أنّ ذلك أصل مكين يدل على احترام الإنسان. وبما أنّ الذهنية العربية لم تتعود بعد على مثل هدا الخطاب فقد استدعاهم إلى حدّ أدنى من الوئام يسمح على الأقل بمراعاة "المودّة في القربى" [23] ومراعاة فضائل الشرف العربي وترك "الاستهزاء الفج" [24] والأذى الحسي [25] فمنهم من لجم الطيش وارعوى عن الحماقة ومنهم من أسرف في الهمز واللّمز والعداوة ورغم دلك بقيت سيرة النبي صلى الله عليه وسلّم مرتبطة بتوجّه أسّسه الوحي على اصل أخلاقي ذكرته أية سورة المائدة عندما قالت "فأعف عنهم واصفح إن الله

17) من الذين حاورهم الرسول من سادة قريش نذكر : عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضرين الحارث، والأسودبن المطلب، والوليد بن المغيرة، وامية بن خلف، وابو جهل بن هشام وزمعة بن الاسود...، انظر بن هشام، ابو محمد عبد الملك، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، م1، ط1، تح، فتحي السيد، دار الصحابة للنشر، مصر، 1995، ص 369-388.

18) سجل لنا القرأن ذالك لما قال "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا" الفرقان 5.

19) "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون". فصلت : 26.

20) إن تتبعون إلا رجلا مسحورا"، الإسراء الآية 47. "ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين"، هود الآية 7. "فقال ان هذا إلا سحر يؤثر". المدثر الآية 24.

21) ابن هشام : م ن، ص 372.

22) الكافرون، الآية 6.

23) ذكر القران ذلك فقال "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربي" الشورى،23.

24) جعيط هشام، في السيرة النبوية -2- تاريخية الدعوى المحمدية غي مكة ’دار الطليعة بيروت’ ط2 ’2007’ ص 257.

25) ابن هشام، م ن، ص ص 375-376.

يحب المحسنين" (26). نعم لقد وسّع الوحي من إطار جدال الوثنيّين العرب إلى درجة ترج الوعي الصّنمي من أساسه حيث قالت سورة النجم "إن هي إلّا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله به من سلطان" (27) أي إن عبادتكم هده الأصنام إنّما هي وليدة ما اخترعتموه من طقوس تحايث أوضاعكم العمرانية. وقدم الرّسول صلى الله عليه وسلّم هده الفكرة على أساس حوار يرمي إلى معرفة الصّواب عن طريق البرهان مع تواصل احترام كلّ طرف للآخر حتى أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم كان يوجب على أصحابه ألاّ يسبوا آلهة قريش ويتلوا على مسامعهم هده الآية "ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدوا بغير علم" (28) وهي أية لها دلالة مهمّة لأنّها رفضت نوعا من العنف قد يخفى على السّذج ويمثّله هنا العنف الموجه إلى رموز العرب الدينية (سب الآلهة). وهي آية تنبه أصحاب محمّد إلى مسائل دقيقة قد لا ينتبهون إليها ولا يعيرونها اهتماما إلاّ أنّها إذا حدثت فإنّها تفسد الوئام بين الناس.

ج- الوئام ومحاورة المسيحيّين

مثلما فعل عليه السّلام مع الوثنيين العرب فعل مع المسيحيين الذين عاصروه حيث توجّه إليهم أفرادا. وتذكر المصادر من كتب السّيرة وكتب التفسير لقاء الرّسول صلى الله عليه وسلّم "مع غلام رومي اسمه بلعام كان عبدا لرجل من قريش" (29) ولقد قام حوار بين هذا الرّجل العبد وبين الرّسول صلى الله عليه وسلّم وكان عليه السلام يرغب في دعوة هذا الرجل إلى الإسلام كما تذكر المصادر الحوار الذي دار بين النبي وبين العبد النصراني "عدّاس"

---

26) المائدة، 13

27) النجم، 23.

28) الأنعام، 108.

29) ابن عاشور محمد الطاهر : التحرير والتنوير، ج 14 الدّار التونسية للنشر، 1984، ص ص 286-287.

بالطائف [30] واللاّفت للانتباه في هذا الحوار أّن الرّسول صلى الله عليه وسلم بناه على مدخل وئامي حيث وصل صلى الله عليه وسلم بينه وبين عدّاس مستثمرا بكل ثقة ما تمليه روح الوئام بين الأديان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدّاس "ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ؟ وما دينك ؟ قال نصراني وأنا رجل من أهل نينوى (اسم بلدة في شمال العراق) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي" [31] هكذا رسّخ الرسول الثقة بينه وبين هذا النصراني عندما بنى الوئام على معطى الوحي ونزّله في التاريخ والجغرافيا. فالرّسول يثق في أنّ القرابة بين البشر هي معطى أصيلا يجمع الإنسان بأخيه الإنسان وعلى الإنسان أن يعي معنى هذه القرابة – ذاك أخي – ويناضل ليرفع عنها كل وصاية ذاتية أو إيديولوجية بحيث لا يؤول المنزع الأصيل ذو المعنويّة الخصبة إلى عنصر تأليب.

3) الدّلالة والمعنى : أصل الوئام يقوم في داخل الإنسان :

إنّ الاستنتاج العام الذي نصل إليه من خلال ما ذكرناه من لقاء الرّسول مع ورقة ومن خلال حيثيات حواره مع العرب الوثنيين ومن خلال اجتماعه ببلعام وعدّاس هو أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم توجّه إلى الإنسان مباشرة إلى عمق الإنسان حيث دلّت سيرته مع هؤلاء الأفراد أنّ أصل الوئام قائم في العالم الداخلي للإنسان. انه فطرة "جوّانية" تلبّي معنى أن يكون الإنسان إنسانا إنّها المؤشّر الّي يدلّ على نجاح الوئام أو فشله وللرّسول صلّى الله عليه وسلّم ثقة في هذه الفطرة الساكنة في أعماق كل واحد منّا. تأكدت هذه الثقة بصفة حيوية لمّا توجّهت رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم إلى كلّ الناس حيث كرّس حياته ليخاطب الإنسان مهما كان حال الإنسان أو شأنه أو موقعه الاجتماعي ومن دون إكراه. إن ثقته في خيريّة الإنسان جعلته يكافح من أجل وعي خلاّق

---

30) ابن هشام : م ن م 2 ص 35.

31) ابن هشام : م ن، ص 35.

ينقد المرجعيات المعيقة للوئام والحوار وهي مرجعيات تسدّ منافذ الوعي وتتموضع بأشكال مختلفة لتحجب الفطرة وبالتالي لا تسمح باكتشاف أنّ أصل الوئام يقوم في داخل الإنسان. فإذا خلا الباطن من توقير الوئام فلا نستطيع الظّفر به ولو استعنّا بقوة السّلطان. إنّ المرجعيات المعيقة تعجّ بسبقيات متعدّدة : - هذا وثنى، هذا يهودي، هذا مسيحي، هذا مسلم، هذا أعجمي، هذا عربي، هذا ذكر، هذه أنثى، هذا سيد، هذا عبد،... بحيث ينهار معنى الانتماء للبشرية ويتضخّم معنى الريبة منها أو الوصاية عليها أو المحاسبة لها ولذلك نبّه الوحي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لتكون سيرته منفعلة بمعنيين كبيرين مهمّين يتصلان بفلسفة الاجتماع : يقتضي المعنى الأوّل تطهير التعامل من نسق المحاسبة الجاسوسية أو التجسّسية الخانقة لحريات الإنسان "فما أرسلناك عليهم حفيظا" [32]، "وما جعلناك عليهم حفيظا" [33] ويقتضي المعنى الثاني تطهير الإنسان من سيّئة تضخّم الذّات أي دعوته وبإلحاح إلى رفض الهوّيات السلطوية "لست عليهم بمسيطر" [34] فالوئام إذا لن ينتعش إلّا بالمعنيين معا ولن يكون له قيام إلاّ إذا كانت الهوية العليا المعتبرة هي الإنسانية أي أن نبقى أوفياء لاحترام الإنسان حيّا أو ميتا. لقد قلنا بأنّ هذا التوجّه صدق مع الأفراد حين ذكرنا لقاء الرّسول بورقة وبلعام وعدّاس. ويمكن أن نلاحظ أنّ هذا التوجّه هو الّذي ساد لمّا حاور النبي صلّى الله عليه وسلّم عتبة بن ربيعة أو النضر بن حارث أو عقبة بن أبي معيط أو غيرهم كصهيب الرومي أو بلال الحبشي أو سلمان الفارسي أو النجاشي [35] ومن البيّن أن مراسلاته للملوك [36] تتنزل

32) النساء، 80.

33) الأنعام، 107.

34) الغاشية، 22.

35) ابن هشام : م ن، م1، ص369-371.-379.

36) ابن حديدة الانصاري، جمال الدين محمد بن علي : كتاب النبي الأمّي إلى ملوك الأرض، من عربي وعجمي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005 م، ص 162-209. وانظر حميد الله محمد : الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط4، دار النفائس، بيروت، 1983، ص 102-225.

ضمن نفس النسق إذ كان يرغب من خلالها أن يعينوه على الوصول إلى الإنسان. لقد كان يروم أن يصل بلاغه إلى الناس ولهم بعد ذلك سبيل الحكم بالقبول أو الرفض. اعتبر الرّسول أنّ القيام الإنساني هو المجال الحق الذي ينتعش فيه الوئام فإذا تلوث هذا المجال ضاع معنى الإنسانية وتمزّق بين مخالب المغالطات الإيديولوجيّة وحينها تتحوّل الخيرية الأصل إلى ذئبية متوحّشة شرسة [37] وحينها يقتل الإنسان بيد الإنسان. ناضل محمّد صلّى الله عليه وسلّم منذ البدايات من أجل رفض هذه الذئبيّة [38] وبقي وفيا لاحترام إنسانيّة الإنسان حيّا وميتا فهاهو عليه السلام يقف احتراما للإنسان لمّا مرّت عليه جنازة يهودي يحمل إلى قبره نعم وقف عليه السلام من دون خلفيّة إيديولوجيّة فتديّنه بالاسلام لم يمنعه من الوفاء للوئام الانساني وإنتصاره الراهن لم ينأ به عن خلق الانسان المكرم حتى أنه لما قال له أصحابه أتقف والميت يهودي [39] بادر عليه السّلام إلى نقد هذا التمترس الملّى حيث عاد إلى الهويّة العليا التي تجمعنا فقال "أليست نفسا" [40]. لقد قابل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هنا بين توجّهين : توجّه يرتد الي الغفلة والعمه والنّسيان وتوجّه يعود إلى وعي الحضور والشّهود وان من أخطر ما يهدّد الوئام هو أن يكون جوهر الإنسان موضوع نسيان فإذا نسيت أو تناسيت من هو الإنسان فإنّك تستطيع أن تتدرّب على كرهه. أما إذا علمت من هو الإنسان، فإنّك ستقف تحيّة وإجلالا لجثمانه.

---

37) استعرت هذا المعنى من فكرة مشهورة لهوبز.

38) إذا راجعنا كتب المغازي والسّير تبيّن لنا أن أغلب الغزوات التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقع فيها قتال.

39) البخاري : م ن، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، حديث رقم 1311.

40) م ن، حديث رقم 1312.

4) الوئام وحلات الطّيش والضّعف

جعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمبدإ احترام الإنسان حضورا في القلب بحيث يتواصل هذا الحضور لصالح الإنسان أينما ولّى. أقول أينما ولى لأن الرسول صلى الله عليه وسلّم لم يغفل في وئامه مع أصحاب الأديان الأخرى حالة الضّعف والتي كثيرا ما تتلبّس بالإنسان. فلم يتقهقر وئامه أمام حالات – لا أخلاقية – واستطاع أن يتعامل معها برفق وهدوء وصبر مقدّرا ضعف الإنسان ومتفهّما انفلات الطباّع ونزغات الوسواس ونزق الطيش بحيث لم تدفعه وضعيات من هذا القبيل إلى قطع الصلة مع الأصل الخيري الذي هو جوهر الإنسان. بل استطاع أن يعود بهذه النّزعات التي تعاكس معنى الرّشد إلى معين العقل. وبعبارة أخرى، لقد أجبر الرّسول الطائش المنفلت أن ينقد نفسه ويعود إلى عمق الذات لعله يكتشف أصله الخيري فيعود الى جادّة الصّواب إن كان فيه بقيّة من حياء [41]. وأمثلة هذا الوئام المبني على مراعاة حالات الضّعف والطيش والمبني أيضا على الثّقة في الإنسان كثيرة في السيرة نذكر منها على سبيل المثال فقط ما كان مع أصحاب الأديان الأخرى [42] من غير المسلمين من مثل موقفه صلى الله عليه وسلّم من لبيد بن اعصم ولبيد هذا رجل من بني زريق "بطن من الأنصار مشهور من الخزرج" [43] وكان لبيد

41) من جوامع الكلام النبوة ما ذكره البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، عن أبي مسعود قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ان ممّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت"، صحيح البخاري، حديث رقم 6120، ص 1123، وأعاد البخاري هذا الحديث مع تغيير بسيط في اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء من دون باب عن أبي مسعود عقبة قال رسول الله صاى الله عليه وسلم "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فافعل ما شئت" البخاري، م ن، حديث رقم 3483، ص 641.

42) للأنه يمكننا أن نتحدث عن وئام داخلي تجلت فيه ثقة الرسول في الإنسان واضحة بينة، ظهر ذالك بوضوح في تجربة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فحدث المؤاخاة يعبر عن أصدق صورة من صور الوئام الداخلي كما يمكننا أن نلاحظ هذا النوع من الوئام مع قصة الصحابي البدري حاطب بن بلتعة،انظر، تفاصيل هذه الحادثة في البخاري : كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، حديث رقم 3007، ص 551

43) العسقلاني، بن حجر، هدي الساري، م 10، ص 237.

حليفا لليهود وذكرت المصادر أنه تدين باليهودية وذكرت أيضا أنه كان منافقا [44] أعدّ لبيد سحرا ليؤذي به رسول الله وعند اكتشاف الأمر لم يؤاخذ الرسول "لبيد بن الأعصم إذ سحره وقد أعلم به وأوحي إليه بشرح أمره ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته" [45] ومن تمام ما يدلّ على الوئام في هذه الحادثة ما راوه زيد بن أرقم حيث قال رضي الله عنه "فما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك اليهودي شيئا مما صنع به ولا أراه في وجهه" [46] ومما يتّسق مع هذا الموقف أنه صلى الله عليه وسلم "لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم : لا يتحدث أن محمدا يقتل أصحابه" [47]. كان عليه السلام يبتغي وصل الوئام ويحرص على توسيعه ولذلك ترك حقه رحمة وعفوا وكره أن ينتقم لنفسه وليس الواصل بالمكافئ حتى أنّه صلى الله عليه وسلم نهى السيدة عائشة رضي الله عنها أن تكافئ مجموعة من اليهود بغليظ القول عملا بمبدأ الرد بالمثل واعتبر ذلك سببا يفسد الوئام [48]. وقد استنبط العلماء من ذلك النهي النبوي قاعدة تقول "بأنّه لم يشرع لنا سب أهل الذمّة" [49] بل وذهبوا إلى أنّه لا يفرّق في صيغة رد السلام بين المسلم وغيره إذ يجوز أن يقال في الردّ

---

44) م' ن'ص' 236-242

45) القاضي عياض 'الشفاء ط' دار الجيل بيروت 'لبنان 2005' م 1426 ه 'ص' 67 والحديث المتعلق بما ذكرناه رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب 'باب إن الله يأمر بالعدل والإحسان' حديث رقم 6063، صفحة 1114-1115 كما رواه الامام مسلم في صحيحه حديث رقم 814.

46) العسقلاني، بن حجر : هدي الساري، م 10، ص 242.

47) القاضي عياض, م ن ص 67، الحديث : لا يتحدث أن محمد يقتل أصحابه، رواه البخاري في المناقب، الحديث رقم 8 رواه الإمام مسلم في البر، الحديث رقم 63 والترمذي في تفسير سورة المنافقون رواه الإمام احمد في المسند م 3 ص 393، وشرحه صاحب هدي الساري،. م 10، ص 242.

48) البخاري م ن كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة السلام، حديث رقم 6252 ص 1145 وانظر العسقلاني م ن م 11، ص 46.

49) هذا الرأي ذكره صاحب هدي الساري وعزاه إلى ابن عبد البر انظر : مجلّد 11، ص 47.

على غير المسلم "عليكم السلام كما يرد على المسلم" (50). واحتجوا بقوله تعالى في القرآن (فاصفح عنهم وقل سلام) (51). وممّا يؤكد أن الوئام المحمدي كان يصدر عن مقاصد مبدئيّة وقيم ثابتة خالدة ما نستنتجه من حادثة زيد بن سعنة (52) جاء هذا الرجل قبل إسلامه إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم يتقاضاه دينا عليه. وعوض أن يطالب بدينه بالرّفق أغلظ في القول وخاطب النبي قائلا "إنّكم يا بني عبد المطلب مطل" (53). فقام عمر ينتهره والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم ثّم قال "أنا وهو كنّا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي، ثمّ قال لقد بقي من أجله ثلاث وأمر عمر بقضيه ما له ويزيده عشرين صاعا لما روّعه فكان سبب إسلامه" (54). لقد استطاع الرّسول أن يعود بهذه النّزعات الطائشة إلى ما يخدم الوئام ويحقق التآلف والذي يظهر لي من خلال هذه الحالات الفردية والتي تعلّقت أساسا باليهود أنّ الرسول راعى كون اليهود أهل عهد ومن مصلحة التآلف ألاّ تؤدي هذه السلوكيات الفردية الطائشة إلى إفساد الجوار والوئام.

5) الوئام مع الجماعات والأديان

أ- الوئام مع النصارى : المشهد المكّي :

لم تعرف مكّة مجموعات نصرانية حيث اقتصر أمر النّصرانيّة فيها على وجود أفراد من الموالي أو العبيد لم يكن لهم نفوذ ولا تأثير. على مشهد التدين في مكّة. ورغم ذلك، اتّهمت قريش هؤلاء المستضعفين بأنّهم ممن يعين محمدا

50) العسقلاني : م – ن ص 47.
51) الزخرف، 89.
52) زيد بن سعنة : من علماء اليهود وأثريائهم اسلم وحسن إسلامه، انظر ترجمته في أسد الغابة، م 2، ص، 136.
53) القاضي عياض : م ن ص 68
54) م ن ص ن

فهم الذين ينقلون إليه التوراة ويملون عليه منها (55) ويغذّون بأفكارهم توجّهه ضد الوثنيّة. إلاّ أنّ الرّسول عليه السلام لم يستمع لاتهام قريش بل إنّه راهن علي أنّ الطرف الوحيد الذي يمكن أن يتواءم معه ويفهم كلمات وحيه هم أهل الكتاب. وقد نقل لنا القران بدقة متناهية قلق القرشيين واضطرابهم من هذا التّواصل بين محمّد وهؤلاء الأفراد من النّصارى قال الله تعالى مبينا ذالك وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا وقالو أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (56). وقال أيضا في سورة النمل « و لقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (57). يتبيّن لنا من خلال هذه الآيات أنّ قريشا تتوجّس خيفة من اللّقاء الذي يتمّ بين محمّد صلى الله عليه وسلّم وبين هؤلاء الأفراد من النّصارى لأنّها تعلم أنّ الخلفية الفكرية التي تأسّست عليها عقائد أهل الكتاب والتي تصدر عن المعنى التّوحيدي يمكنها أن تزلزل قناعات الوثنية والشّرك لاسيّما والواقع المكي بدا يشهد كيف استطاعت لغة العرب التي نزل بها القران أن تصوغ معاني التّوحيد باقتدار رفيع بلغ حدّ الإعجاز شكلا ومضمونا حيث لفت الخطاب القرآني أسماع العرب الوثنين وعقولهم وفي هذا خطر تخشاه قريش لأسباب يطول شرحها. وحتّى تغطّي قريش على هذه الحقيقة والتي يبدو أنّها تقدرها قدّرها حقّ قدرها جنحت إلي معارضة دعوة محمّد باستعمال خطاب تمويهي مغالطي سمّاه القران – زورا– (58). والذي يتبين لي أنّ هذا النوع من الخطاب مثقّل بهاجس سياسي مبني على منطق

---

55) الجابري محمد عابد : مدخل إلي القرآن الكريم الجزء الأول في التّعريف بالقرآن ط2 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان 2007 ص–200.

56) الفرقان : 4–5.

57) النحل : 103–104.

58) باعتبار أن الزور هو "الكذب المحسّن المموّه بحيث يشتبه بالصّدق" ابن عاشور محمد الطاهر : م ن، م 18–19، ج 18، ص 324

الغاية تبرر الوسيلة والدّليل على ذلك أنّ هذا الخطاب يتفاقم فيه التكذيب [59] والتخوين [60] والاستهزاء [61] كلّ ذلك من اجل محاصرة الخصم والهجوم عليه. فقريش معروف عنها أنّها تعتبر اليهود والنّصارى خصما سياسيّا وثقافيّا وكل من يتعامل معهم فهو منهم. لذلك فهي تحرّض ضدّ أولئك العبيد أو الموالي المسيحيين الذين تواصل معهم الرّسول صلى الله عليه وسلم وهم عدّاس مولى حويطب بن العزى ويسار أبو فكيهة الرومي مولى العلاء الحضرمي وفي سيرة ابن هشام انه مولى صفوان بن أمية بن محّرث وجبر مولى عامر وكان هؤلاء من موالي قريش بمكّة ممن دانوا بالنّصرانية وكانوا يعرفون شيئا من التوراة والإنجيل [62]. فهؤلاء المستضغفين يجب الحذر منهم ومتابعة تآمرهم السري مع محمّد ألا ترى أنّهم يلقونه

– بكرة – في أوّل النّهار و– أصيلا – أخر المساء بحيث تقل الحركة فلا يكتشفهم احد ومن الخير لقريش أن تئد هذا التآمر حتّي لا يتفاقم. إن هذا الاستنفار السياسي القرشي لم يرهب الرسول الذي أصر على أن يكون بينه وبين الآخرين حوار. ونحن نعلم أنّ الحوار الهادئ هو تجل من تجليات الوئام. ولقد وسّع الرسول من هذا التوجه فانزاح ليشمل المجموعات ويفتح الباب لحوار الأديان..

ب– الوئام مع نصارى الحبشة :

يتجلّى مبدأ الثّقة في الإنسان مرة أخرى حيث يوجه الرسول أصحابه إلي الحبشة، ذلك أنّ أصحاب هذه البلاد قد تربّوا في إطار نسق حضاري مخصوص جعلهم يوقّرون مبدأ احترام الإنسان. وإذا تجلي احترام الإنسان

59) التكذيب : أعانه عليه قوم آخرون – فمحمد لا يأتيه وحي ولا يبتكر من عنده بل هو يستعين بغيره.

60)

61) الاستهزاء : أساطير الأولين.

62) ابن عاشور محمد الطاهر : م ن ،ص323.

داخل مجتمع ما بشّر ذلك باستعداد خصب للوئام : شعب مؤمن يعتنق المسيحيّة التي ترفده بزاد معرفي وأخلاقي نظام سياسي له خصوصياته إلاّ أنّه يقوم على العدل ويحكمه ملك عادل (63) وظاهرة اجتماعية تقوم على الأمن مع سعة الرزق وبسطة في المعاش.

إنّ هذا المستوى الحضاري سينعكس على البينة الذهنية والسلوكية لأهل الحبشة إذ كانت للعرب صلات بهذا البلد عبر التجارة (64).

يتبين مما تقدم أنّ محمدا عليه السلام قدر وانطلاقا من هذه المعطيات أنّ الوئام سيكون ناجحا ومن دلائل صدق ثقته في ذلك انه شجع أصحابه ليخوضوا تجربة الوئام بأنفسهم وليقتحموا عقبة الخوف من الآخر وليغلّبوا مقصد الثقة في الغير ... في الإنسان. فأقر بذلك شرعية التجاء الإنسان إلى أخيه الانسان طلبا للحماية ودفعا للظلم. ولقد صدقت توقعات الرسول حيث تعامل النجاشي ملك الحبشة مع أصحاب محمد وفق ما تقتضيه أصول التعامل النظيف. لقد حاور النجاشي الصحابة وأمّنهم وردّ رشوة قريش (65) وتذكر المصادر أنّ النجاشي بعث وفدا من أهل الحبشة ‹لاستعلام أمر النبي صلى الله عليه وسلّم بمكة فجلسوا إلى النبي (66) واستمعوا إلى القرآن وكانت نهاية الحوار أن أسلموا وتذكر المصادر أيضا أنّ قريش علمت بهذا الاجتماع فغاضها ما تمّ وأغلظت القول لوفد الحبشة على غير عادة العرب في استقبال الضيف، ولكنّ هذا الوفد المحتضّر لم يجهل ولم يردّ الفعل ودلّت تصرفاته على غير عادة العرب في استقبال الضيف ولكن هذا الوفد المحتضر لم يجهل ولم يرد الفعل ودلت

---

63) ابن هشام : م– ن م1. ص 397

64) الطبري محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك. ت ح محمد أبو الفضل إبراهيم. دار سويدان بيروت. لبنان. 2/ص328.

65) ذكر الإمام احمد في مسنده أن النجاشي قال للصحابة : "فانتم سيوم بارضي والسيوم الامنون" م1– ط3– تحقيق احمد شاكر. دار المعارف، مصر، 1975، ص ص 201–203.

66) ابن عاشور الطاهر : م ن.م20. ص143.

تصرفاته على روح تنم عن اقتدار عقلي راشد وعن سماحة خلقية تروم الوفاق. وقد ذكر القرآن هذه حادثة في سورة "القصص" لما قال "الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى قالوا أمنا به إنه الحق من ربنا وإنّا – كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين" (67) هذه الآيات زيادة عن كونها تؤكد قدوم هذا الوفد إلى مكة (68). فإنّها وصفتهم بسبع خصال هي من خصال أهل الحضارة والكمال الخلقي (69) ثمّ صرّحت الآيات بأن هؤلاء القوم لا يقدرون أخلاق الوئام تقديرا نظريّا فحسب بل يطبّقون ذلك فهم يدرؤون بالحسنة السيّئة وتلك هي السماحة وهي "من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حسن المعاشرة" (70) حتى أنّهم لم يردّوا على أذى قريش لهم بالمثل ولكن بالإعراض والحلم – لا نبتغي الجاهلين – ذلك أنّ الحلم قيمة خلقية نفسية تدل على مقام حضاري مهم وهو مقام يقابل مقابلة تضاد معنى الجاهلية بالتعبير القرآني ذلك أن الجاهلية تستبطن الشدّة وردّة الفعل وغلظة الطباع وتضخّم الأنا..... وكل هذه آفات لا نجد لها في سلم القيم الحضارية مكانا. هكذا بينت لنا هذه الآيات من سورة القصص والتي أرّخت للحدث أنّ الوئام ينتصر بهذا النضال العربي الحبشي الذي فتح أبواب الحوار والذي ساعد على أن يلتقي المسيحي والمسلم

---

67) القصص : 52-55.

68) ذهب بعض المفسرين أن الآيات نزلت في ورقة وصهيب الرومي ولكن سياق الآيات لا يقر ذلك فما سمع ورقة غليظ القول من قريش وليس له ولصهيب ما بنفقان والآيات أشارت إلى أن المعنيين انفقوا كما أن السورة نزلت قبل الهجرة فلا علاقة لها باليهود الذين اسلموا في المدينة.

69) ومنها : الصبر والسماحة والإعراض عن اللغو والترام الكلام الفصل وترك الجهالة ... انظر الآيات السابقة.

70) ابن عاشور محمد الطاهر : م ن ص 145.

على كلمة سواء وفي هذا الإطار تتنزّل رسالة الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة [71] ومن ورائه شعب الحبشة.

6) الوئام مع اليهود : ثقافة الوئام وفعل السياسة : سؤال التحدّي

أ- اليهوديّة ومقصد الوئام

يبدو أنّ لليهود في جزيرة العرب ما يساعد على دعم ثقافة الوئام فهم أهل كتاب ويفقهون في النبوّة ولهم أدب ديني متميز وتصلهم بالعرب المسلمين وبالعرب الوثنيّين وشائج القربى الدّموية وصلة الجوار وحنين الحمى. فهم من أهل البلاد ولا غضاضة أنّ يكونوا مرتبطين في ذلك الزّمن بدوائر يهودية عالمية لهم بها اتّصال بموجب ما يقتضيه الولاء للأنا الملية. والذي يبدو لي أن هذه المميزات الثقافية اليهودية تستطيع أن تسند وتغذّي اتجاه السّلام والوئام والأصل في ذلك أنّ إرثهم الدّيني يجمع على احترام الإنسان وإحترام اختياراته ويمنع البغي والظّلم. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنّنا نجد في التوراة أنّ النبوّة تقوم على الإصطفاء وهي إمكان يمكن أن يتحقّق في التّاريخ بمشيئة الله فليست النبوّة حكرا مليّا [72]. ولا علاقة لها بتمجيد أمة دون امة إنّما كان تعدد الأنبياء ليواصل نشاط الرجال الموحى إليهم تقصّيه نحو الإنسان. ولذلك وبناء على ما ذكرناه فإنه لا يوجد مانع يعوق البهود عن إنجاح توجه الوئام.

---

71) انظر الرسالة في مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الرشداة. لمحمد حميد الله : ط4.دار النفائس، بيروت،1403 ه /1983 م .ص101. مع العلم أنّ وثيقة هذه الرسالة اكتشفها المستشرق د-م- دنلوب ونشرها عام.1940 والصورة الشمسية لهذه الرسالة مثبتة في العديد من الراجع

72) لاسيّما إثر اعتراف اليهود بنبوة إسماعيل ومحمد عليهما السلام.انظر التكوين 20/17. التثنية 17/18-20.

ب- الرسول يقدّر مواطن الائتلاف

بدأ أمر العلاقة بين الرسول واليهود متّجها نحو الوئام فمحمد صلي الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد مع احترام خاصّ لا مساومة فيه بالنسبة الى حرية المعتقد. وهو في هذا المجال يلتقي مع أحبار اليهود وعامّتهم ممّن يردون من التوراة ويصدرون عنها فهؤلاء يقرون بأنّ التواصل بين الموحدين إمكان سهل المنال بل ففي نصوص التوراة ما يثبت أنّ اليهود يترقبون مجيء رسول موعود من نسل إسماعيل تنطلق رسالته من مكّة [73] وهو الذي سيكون حافظا لإرث النبوة وخاتما لها في آن واحد [74] إنّ هذا الاتّساق الداخلي بين اليهودية والإسلام هو الذي جعل الرسول يغلّب أن يكون التآلف بين أصحاب الدّيانتين هو الأصل فالطريق إلي الوئام مفتوح ويبقى فقط نسق الفهم وحيثيات التّماس وراهنية الأحداث فهذه العناصر يمكنها أن تعطّل أو تلوّث طريق الوئام كما يمكنها أن تمهّد له وتدعمه. وعلى الراغب في الوئام أن يتواصل مع غيره مقدّرا مبدأ الاحترام وأن ينزّه العلاقات عن محاكمة النوايا. وهذا ما فعله الرسول محمّد صلي الله عليه وسلّم مع جمع من اليهود من أهل يثرب ممن تواطؤوا مع قريش فأعدّوا أسئلة لامتحان صدق نبوّة محمّد [75]. أجاب الرسول عن الأسئلة في مكة وهو متيقن أنّ خبر الإجابة سيصل إلي اليهود هناك في يثرب فبرهن بذلك انه لا يمنع أن يقوم الجدال الحسن بين الأديان لأن قيم الجدال يدلّ على تجلي الوئام في الواقع ويدل أيضا على تثبيت مسّعى السلم في التعامل ولذلك ثبت لنا من خلال السّيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم

---

73) انظر التوراة السامرية التثنية 18/17-22.

74) انظر للتحقق من ذلك التوراة السّامرية ص 287./ سفر تثنية الاشتراع. الاصحاح 18/17-19 وانظر ايضا ما ذكره الشهر ستاني حول هذه المسالة حيث نقل ما ورد في التوراة، الشهر ستاني : الملل والنحل ج1. تحقيق محمد سيد الكيلاني. دار المعرفة بيروت لبنان 1400ه/1980م، ص213.

75) ابن هشام السيرة.ج1.ص379. وانظر أيضا الجباري محمّد عابد : م ن، ص.201

يغير هذا التوجّه في تعامله مع اليهود والنصارى بل جاهد من أجله إلى أن انقضت المرحلة المكّية حيث نزل عليه من القرآن ما يدعوه إلى مواصلة هذا النّهج فبادر عليه السّلام إلى قراءة ما نزل جهرا وعلى رؤوس الملا أي أنّه تهيّأ لجواره مع اليهود في يثرب وهو يتلو آيات سورة العنكبوت التي تقول "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالّتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون." [76].

إنّ الآية المتقدمة تثمّن الوئام وتحرص على استثمار مواطن الإئتلاف كما أنّها تنبه إلى خطورة أن يغبن هذا التوجه بظلم ظالم. هكذا سيصل النبي صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة بهذا التوجه الوئامي الذي يصبو إلي أن يستمع الناس إلى بعضهم في جوّ من السّلم وأن تجد حريّة الكلمة والدعوة إلى دين الله مجالها في إطار الحوار الخلاّق والجوار الكريم بحيث ينبذ الإرهاب والإكراه والمكر السلطوي.إنّ المتأمل فى سيرة الرسول صلي الله عليه وسلم يعلم أنّه عليه السلام كان واعيا اشد الوعي بأنّ الأديان تقف على "إرادية قوية جدا في الدّعوة إلى التوحيد" [77]. ومن الصّعب أن تتنازل الأديان عن هذا المبدأ فهو من صميم حقّها بل هو أصل جوهرها وليس من حقّ أي دين أن يمنع الآخر من الدعوة لأنّ حصول ذلك يعني اغتيال الدين.إن هذا المقصد إذا ما روعي بصدق فكر وحرارة روح يمكنه أن يجنب الوئام مصارع السوء التي يعج بها خضم الواقع.

ج- الوئام وخضمّ الواقع : يثرب وسؤال التحدّي :

وصل الرّسول صلي الله عليه وسلم إلى يثرب لينشأ هناك وضع جديد ذي سياق له خصوصياته. نعم لقد حاول الرّسول صلي الله عليه وسلّم مع الطائف باعتبارها مدينة والمدينة ينتعش فيها الى حذّ التوجه الوئامي نظرا

76) العنكبوت، 46.

77) جعيط هشام : م-ن ، ص 286.

لاشتباك المصالح غير أنّ تجربة الطائف لم تؤت ما كان مؤمّلا منها لأسباب اقتصادية ودينيّة وعصبيّة فاتّجه النبيّ صلى الله عليه وسلّم إلى مدينة أخرى -* يثرب ذلك أنّ بنيته الفكريّة تؤمن بأنّ الوئام يمكن أن يجد مكانه في المدن والذي نلاحظه أنّ هذه البنية إنما تغذت على أساس من الوحي. فخطاب الوحي يوجّه الدعوة صوب الناس ويضع للاجتماع المدني ما يساعده على تفعيل أخلاقه وتنظيم شؤونه مع توقير خاصّ لاحترام ظاهرة التواصل عبر احترام العقود وهذا كله لن يينع إلاّ في المدن والحواضر وأنىّ للأعراب والبدو أن يتفاعلوا مع توجيهات هي من صميم مرتكزات المجتمع المدني والذي أميل إليه أيضا أن أهل يثرب قد بلغتهم أصداء هذه المقاصد القرآنية يمكنها أن تعود بيثرب إلى حالة الإستقرار والسّلم ذلك إنّ أغلب الأوس والخزرج اقتنعوا بأنّ هذه المقاصد القرآنية يمكنها أن تعود بيثرب إلي حالة الاستقرار والسلم ذلك أنّ هذه المقاصد تؤصّل الوازع الأخلاقي وتؤكد على ضرورة الحسّ المدني وتنبذ التقاتل والتّوحش. وهي مقاصد تجذب إليها سكان يثرب الذين تؤرّقهم لحظة بعاث الدامية (78) وهي لحظة لاتزال تخيّم على واقع يثرب. إذ تشهد الشواهد أنّ العلاقات بين الفرقاء يكتنفها الحذر ويخترقها إرث بعاث ويضرب في عمقها عداء مزدوج عداء بين العرب الوثنيّين فيما بينهم وعداء بينهم وبين قبائل اليهود وأسباب هذا العداء متعدّدة منها ما هو إقتصادي ومنها ما هو سياسي "ولكن هناك نقطة أساسية أهمّ في تفسير مثل هذه الحروب التي لم تن وهي أنّ أهل يثرب أبقوا على تنظيم اجتماعي بدوي وعلي القيم البدوية ولم ينجحوا في تكوين مدينة منسجمة وروح المدينة كما نجحت في ذلك مكة والطائف" (79). والذي أميل إليه أنّ الّرسول فهم أنّ يثرب ترغب في تجاوز لحظة البداوة وترغب في أن تتواءم مع طبيعة المدينة لقد ظهر هذا التّوجه منذ أن بايع نقباء الأوس والخزرج النبيّ وتأكّد لما أسلم أغلب الأوس والخزرج وفتحوا باب

78) بعاث : واقعة تقاتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديدا قبل الإسلام.

79) جعيط هشام : م-ن ص ص 303-304.

يثرب لاستقبال المهاجرين ثم لم يستكفوا من أن تلغى تسمية يثرب وتتغيّر الرموز ويصبح حمى يثرب موسوما باسم المدينة وليس من السّهل أن يحدث هذا التغيير إذا لم يكن القوم قد رغبوا فعلا في تجاوز لحظة البدواة. نعم أصبحت المدينة الان مستعدّة لتزكية حالة الوئام لاسيّما بعد أن حصل وئام داخلي فريد من نوعه تجلّي عبر حيثية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فالمؤاخاة حدث يدلّ علي الواقعية والذكاء ذلك أنّه ليس من المنطقي أن تطالب جماعتك بالتآلف مع الغير إذا لم يكن خلق التآلف محبوبا عندهم مواقرا لديهم وفشيا فهيم. فمن المعلوم أنّ فاقد الشئ لا يعطيه. إنّ مشهد المدينة ينبئ بأنّ أحوال العمران وموازين القوى تؤشّر باستعدادات ترفد الوئام وتقوّيه وتجعله إمكانا. فالجغرافيا تسمح بهذا الإمكان واللحظة التاريخية تسمح بهذا الإمكان ورسالة الرسول تبشّر بهذا الإمكان.فمحمّد صليّ الله عليه وسلّم يبتغي تأصيل الوئام في التاريخ بل إنّ ذلك من أهمّ مهمات الدعوة الإسلامية "آدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين" [80] وقد ذكر القرآن بما هو أخصب دلالة وأعمق معنى فقال "وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين" [81] وزيادة عن كونها من أهمّ مهمّات الدّعوة الإسلامية فهي مهمة أخلاقية تدل علي احترام الإنسان من دون أن تغفل أنّ الاختلاف بين البشر شرعيّ ولذلك راعى الرّسول صلي الله عليه وسلم وضع الأوس والخزرج – الأنصار- كما راعى وضع المهاجرين كما راعى وضع اليهود ووضع الأعراب المجاورين للمدينة مثل جهينة وأسلم وغفار [82].

80) النحل، 125.

81) الأنبياء، 107.

82) سيتضح هذا الأمر عندما نتحدث عن أثر الصحيفة في تأكيد وئام المواطنة.

إنّ جرأة الأنصار باستقبالهم للإسلام لم يغفل الرّسول صليّ الله عليه وسلّم عن تلمّس سبل الحكمة في فهم حقيقة الوضع الجديد داخل يثرب ذلك أنّ مجتمع المدينة سيتنوّع إناسة بمجيء المهاجرين وسيتعدّد عقيدة – وثنيّة يهودية إسلام وسينفسح فيه التدافع (الصّراع) بحكم الامتيازات المتباينة والحراك الاجتماعي والثقافي الجديدين وكذلك لابد أن يقوم الوئام علي مراعاة الواقع الجديد بكل تجلّياته بحيث سيتمّ تأصيل الوئام بحكمة وتبصر ومرونة وواقعية.

لقد ألمعنا من قبل إلي أنّ مجتمع المدينة متنوّع ولكنه أيضا مجتمع مركّب ومغلق إلي حدّ ما.فحصون الأوس والخزرج المسمّات عندهم بالآطام (جمع أطم بضم الهمزة) كثيرة وهي حمى داخل الحمى. وحصون اليهود كذلك عديدة وعنيدة [83]. وهذه الحصون زيادة عن كونها تمثّل رمزا للسيادة فإنّها تستبطن معنى الحذر والنفرة من الأخر وتأبى كل اختراق وكل طارق كما لا ننسى أنّ الإعراب الذين حطوا رحالهم حول المدينة كانوا يصدرون في علاقتهم مع الأطراف الأخرى وفق منطق الحصون والآطام وإن كانوا أصحاب خيام.

د- وئام المواطنة

إنّ المشهد الذي وقفنا علي أهمّ مفاصله في الفقرة السّابقة لا يصرح بتواصل سهل لاسيما إذا علمنا أنّ قريش وأحلافها يمكّنهما استغلال التناقضات وتوسيع هوة الانفصال. إنّ صلاح مجتمع المدينة لا يكون إلاّ بقيام وئام يجمع بين أجزائه ولا سبيل إلي هذا الوئام إلاّ على أساس وفاق جامع يبني علي آصرة موضوعيّة ذات مرونة تجمع وواقعية تمنع : مرونة تراعي هذا التركيب وواقعية تراعي أن تتواصل أحوال العمران وشؤون المعاش بعيدا عن كل ما يؤدي إلي النزاع المخرب لمكونات المجتمع أي أنه لابدّ أن يبنى الوئام علي

83) من حصون اليهود : السلالم. الوطيح. القموص ناعم حصن ابي الحقيق.. انظر مهدي رزق الله احمد. السيرة النبوية ص 501.

ضمانات محسوسة لا وهميّة فكانت فكرة الرسول بأنّه لا مناص من رابطة حقوقية تنطلق من فلسفة العقود وبالتحديد من معادلة الحقّ والواجب. لأنّه لا مكان للوفاق بين الناس إذا غابت هذه المعادلة أو خربت لقد أراد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يكون التّمايز بين الناس على أساس تلك المعادلة. والذي نميل إليه أنّ معادلة الحقّ والواجب تتنزّل في صميم ما يعرف اليوم بالمواطنة. ولذلك تعدّ الفكرة فتحا عظيما وسبقا دستوريا يشهد به التاريخ وتوقّره مدوّنة القانون المدني. لكنه إذا تأسّس الوئام علي المواطنة فإنّ ذلك يعني أنّ الرسول يدعو مجتمعه إلي لحظة تاريخية جديدة يتم بمقتضاها نقد البنى الحقوقيّة المؤطرة لظاهرة الاجتماع والتي كانت شائعة عند اليهود وعند العرب وعند الفرس وعند الروم (84) ذلك أنّ هذه البنى وراءها خلفيات يمكنها أن تعيق مجتمع المواطنة والتعدّد ويمكنها بالتالي أن تفسد الوئام ولذلك رأى الرّسول محمد صلي الله عليه وسلم أنّ نقد هذه الخلفيات لا يكفي بل لابد من توجيه اللحظة التاريخية صوب الأرقى وذلك بالمرور الى الفعل. فبادر عليه السّلام إلي تدوين وثيقة مكتوبة تنم عن حسّ مدني مسؤول يثمّن المواطنة ويرعى الوئام. وقد عرفت هذه الوثيقة باسم الصحيفة (85).

---

84) ففي شريعة التوراة حقوق لبني اسرائيل عامة وحقوق أخرى تخص أبناء لاوى منهم ولقد تمايز العرب في الحقوق علي أساس الأعراف القبلية فهم لا يعطون من الحقوق للمولى وللعبد وللصيق ما يعطونه للصريح أما الفرس والروم فقد نظروا إلي الحقوق علي أساس هرم طبقي فلكل طبقة من المجتمع حقوقا وواجبات تخصها.

85) ذكرت كثير من مصادرنا الإسلامية هذه الصحيفة إلا أن لعلماء الحديث نقدا يتعلق بشكل النص. والذي أراه أنّ المعاني التي تضمنها نص هذه الوثيقة لا تتعارض مع أصول الإسلام ومقاصده وفروعه.كما أنّ أسلوبها ينم عن أصالتها فكلمات النص وتعابيره "كانت مألوفة في عصر الرسول ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة علي غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة" كما قال علي محمد الصلابي في كتابه السيرة النبوية.أما الدكتور أكرم ضياء العمري فقد بيّن في كتابه السيرة النبوية الصحيحة أنّ الدارس لطرق ورود الوثيقة يطمئن إلي كونها "ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة". ولقد نحى هذا المنحى أيضا الدكتور محسن عبد الناظر في كتابه حوار الرسول مع اليهود ط1 دار الدعوة الكويت 1409-1989. انظر الصّلاّبي السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ط1ج1 المكتبة العصرية بيروت 2006 ص 354 وانظر العمري أكرم ضياء السيرة النبوية الصحيحة ط1ج1 مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة 1412/1992 ص275.

هـ - وثيقة المدينة ودلالات الوئام.

إنّ الذي يهمّنا في هذه الوثيقة التاريخية المفعمة بالمعنوية والنفيسة في باب الترتيبات الدستورية أنّها تدعو إلى وئام ممكن غير موهوم. فهي قد راعت في ضبطها لقانون التصرّفات : توفير العدل. والالتزام بالعهود واحترام أخلاق الحوار واحترام الآخر واحترام الأديان والدفاع عن الوطن ونبذ العنف (86) كما أشارت بحياء يفهمه الأذكياء إلي أميّة (87) كونيّة جامعة لا تلغي التعدّد بل ينبغي أن تقوم عليه ولذلك راعى رسول الله لمّا تمّ إعداد الوثيقة المشهد الداخلي لكل جماعة تستوطن المدينة فاحترم ما لها وما عليها (88).

ووقّر ما لها من أعراف ما لم تهدّد هذه الأعراف مقتضى الاجتماع بل إنّ في الوثيقة تصريح بأنّ اختلاف الأعراف لا يناقض الوئام، ولن يكون مدعاة إلى التّنافر فخصوصية المتجاورين من أبناء الوطن الواحد مرعية بل ومنصوص عليها في بنود الوثيقة (89) ولا سبيل إلى طمسها أو الاعتدال عليها بأي لون من ألوان التحكّم أو التّبرير "الإيديولوجي" فليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردا أو جماعة أو تخصّ أحدا بالإطراء أو الذم" (90) بل كان من صميم مقصدها تفعيل الواقع التعدّدي على أرض المدينة وفق قاعدة تقوم على معادلة لا غالب ولا مغلوب إذ الشرط في هذا الميثاق أن تكون المواطنة على أساس وئام تنجذب إليه وتقره كل العناصر البشريّة المكونة لمجتمع المدينة. والذي يتجلّى اجتماعيا حسّا ومعنى في ذلك التعاضد التعاوني

86) راجع نص الوثيقة في السيرة النبوية للصلابي من الصفحة 354 الي ص357. ليتبين لك ما ذكرناه.

87) انظر نص الوثيقة البنود :1و 2 : ص59. ثم من البند 25 إلي 35: ص 61 حميد الله محمد م ن.

88) لاتخرج الوثيقة عن كونها سجلا يتضمن حقوق وواجبات متساكني يثرب. انظر م ن. ص59-62.

89) راجع بنود الوثيقة من البند الثالث إلى البند الحادي عشر ومن البند الخامس والعشرون الى البند الخامس والثّلاثون.

90) الصّلاّبي على محمد : السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، ط1، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 2006، ج1، ص354.

الذي لا يلغي الخصوصية الثّقافية والدينية وخاصّة الدّينيّة لما لها من حساسية وتأثير عميق ومركب ذلك أنّ التغاضي عنها بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" [91] ثم عقبت الصّحيفة بذكر كل قبائل اليهود حتى لا يظنّ أنّ المقصود في البند المتقدم يهود بني عوف فقط فقالت "وإن ليهود بني النجار مثلما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الحارث مثلما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ساعدة مثلما ليهود بني عوف وأن ليهود بني جشم ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني الأوس ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ثعلبة ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته [92]. والذي أراه أنّ الاستدراك الذي خصّص هذا التّعميم وأعني به قوله" إلا من ظلم وأثم ...." إنّما جاء لمزيد تفعيل الوئام وتهيئة أسباب نجاحه حيث سيحرس هذا الوئام على أسس واقعيّة ذلك أنّ الجماعات المكوّنة للجغرافيا السكّانية بالمدينة ليست جزرا منعزلة فالعلاقات بينها قائمة ومتبادلة بل إن ّساحة التّفاعلات بينها قد اتسعت وهنا لابدّ من مراعاة اللّحظة الحضاريّة الجديدة إذ ينبغي أن يقوم الوئام على شروط نابعة من داخل هذا المجتمع ولقد كان مقصد الرّسول صلى اللّه عليه وسلم أن تتواصل أحوال العمران على مبدئي التّعاون والتعارف وأن تؤصّل سنن التّعايش السلمي بين مكوّنات هذا المجتمع وأن يناضل الجميع من أجل درء العنف ومحاصرة بؤر التوتر ورفض الترويع وفضح منطق إما قاتل وإمّا مقتول وهو منطق جاهلي عانت منه من قبل كلّ جماعات يثرب. وبناء على ما ذكرناه، فإنّ الوثيقة ستنقل مجتمع يثرب من لحظة القبيلة وما رافقها من دلالات (كالأحادية والاستبداد والتوجس من الآخر والمبالغة في توقير الأنساب والأسلاف والقتال لأتفه الأسباب ...) إلى لحظة الأمة وما يرافقها من دلالات ايجابية ذات حس أخلاقي ووعي اجتماعي (كالتكامل والتنوع والتعدّد والتعاون والانفتاح واحترام الآخر واحترام الغير....) نصت الوثيقة على تدشين لحظة

---

91) حميد اللّه، محمد.م ن، ص61.

92) م ن، ص ن.

الأمة لما قالت "هذا كتاب محمد النبي رسول اللّه بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمّة واحدة من دون الناس ... وإن من تبعها من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين" [93].

إنّ مصطلح أمّة يدّل على أن التناسب بين النّاس يقوم على مراعاة الأنماط الثقافية والعقائد الدينية أي أن الدّولة الفتية لا مناص لها من احترام التعدّد والتنوّع وهذا يعني أنّ هذه الدّولة ستحتاج إلى الوئام لا كبعد إيديولوجي فحسب بل كشرط حيوي. وبعبارة أخرى، فإنّ الوئام سيعطي للدّولة شرعيّة ويقوّي أمرها لأنّه كما ذكرنا أمر حيوي وركن لابدّ منه لقيام دولة لحظة الأمة. إن هذه الحقيقة هي التي أطرت مطلب التوجه الذي يبتغي وجود مرجعيّة قانونية لها من القوة التنفيذية ما يسمح بتثبيت الوئام وحمايته خوفا من أن تعود لحظة القبيلة بفواجعها الدامية. نعم لقد تهيّأ مجتمع المدينة حضاريا لأن تكون له سلطة قانونية يعود إليها الناس عند وقوع المنازعات ذلك أن حالة التخاصم ممكنة الوقوع بل تقتضيها طبيعة الحياة اليومية ويفرضها راهن المعاش وحيثيات تعامل النّاس مع بعضهم فالواقعيّة تقتضي توظيف السّلطة لإنجاح الوئام ذلك أنّ الوئام ليس تنازلا عن الحقوق ولن تتحول معنويته الأخلاقية إلى ضرب من الابتزاز. نعم إنّ للوئام فلكه الأخلاقي وفلكه الرّوحي ولكن له أيضا سياقه القانوني الاجتماعي بضوابطه وقيوده وحدوده ولقد تجاوز الرّسول هذا الإشكال وفق ما يقتضيه الوئام فلكل فئة شروط التّقاضي الخاصّة بها كما هي مثبتة في مراجعها ومصادرها وبحسب ما أقرّته أعرافها وقيم عدلها فاليهود يحتكمون فيما بينهم إلى مدونتهم القضائية ولا حق لأحد أن ينتهك مجالهم القضائي وليس لأيّ كان أن يقترح لهم أحكاما أو أن ينقد ما صرّحوا به عقوبة

93) ابن هشام : م ن،ج2،ص127-128-، الصلابي، علي محمد، م ن، ص.354 حميد اللّه، محمد، م ن، ص59.

للجريمة أو استرجاعا للحقوق. فالرّسول نفسه ليس من حقه أن يتدخّل في شؤونهم القضائية إلا اذا رغبوا هم في ذلك لمزيد التّحرّى والعدل. وقد صرّح القرآن بذلك في سورة المائدة فقال "فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم" (94) وتذكر المصادر أنّ بني النضير وبني قريظة اختلفوا في ديّة القتلى بينهم فحكّموا الرّسول في ذلك فأمره القرآن أن يحكم بينهم بحسب ما شرّعته التوراة "وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس" (95). وهذا التخصيص بالاحتكام إلى التوراة إنما ترتّب على مراعاة مبدإ الوئام ولمزيد حفظ الوئام بين المسلمين واليهود أمر القرآن الرّسول صلى اللّه عليه وسلم بأن يتحرّى العدل إن حكم بينهم "وإن حكمت فأحكم بينهم بالقسط إن اللّه يحب المقسطين" (96) كل ذلك حتى يكون حكم الرّسول بينهم متّسقا بما عرفوه من تنويه التوراة بمبدأ العدل وهذا الملحظ يزيد من التمكين للوئام. وبنفس التّوجه وبنفس المنطق تعامل الرسول مع نصارى نجران من الذين وفدوا على المدينة ليجادلوا في أمر عيسى (97). فهؤلاء وبعد أن توسعوا في الجدال انصرفوا من المدينة ولم يسلموا وتركهم الرّسول إلى ما اختاروه. ولكن اللاّفت في اجتماعه معهم أنّ روح الوئام قد خيّمت على هذا اللقاء رغم اشتداد لهجة الجدال أحيانا والدليل على ذلك أن مصادر السيرة تذكر أنّ هذا الوفد النصراني طلب من الرّسول أن يرسل معهم من يحكموا بينهم في مسائل اختلفوا فيها ذات علاقة بالمعاملات المالية فبعث معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح للقضاء في الأموال (98) وهو ما يدل على أنّ الوئام بينهما قد اصتّل الاحترام وأثمر علاقات تعاون.

---

94) المائدة، 42.

95) المائدة، 45.

96) المائدة، 42.

97) بيّنت سورة آل عمران في ثمانين آية ما تقرّر في الإسلام بشأن عيسى : خلقا ومعجزة ورسالة وموقعا في التاريخ. وجاءت هذه الآيات كرّد على أسئلة طرحها وفد نجران.

98) البخاري : من، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب أبي عبيدة، حديث رقم 3745 ص 682 .. وانظر، كتاب المغازي : باب قصة أهل نجران حديث رقم 4380ص 789. وانظر كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، حيث رقم 7254، ص 7252.

ومع تعدّد الجهات القضائية والذي اقتضته طبيعة مجتمع المدينة، عمدت الوثيقة إلى بيان أنّه على هذه الجهات أن تؤول إلى سلطة مركزيّة تجمع التعدّد وفق خيار الوئام الذي أصبح خيارا استراتيجيا بالنّسبة إلى سكان المدينة إذ به يستدام التعايش السلمي. ولذلك، فإنّ اختراق هذا الخيار أو تخريبه إنّما يؤدي إلى انهيار هذا المشروع المدني الفتي بحيث تعود المدينة إلى لحظة القبيلة وإلى أجواء الحروب. وهذا فساد ينبغي درؤه بأقصى فاعلية وذلك ممّا لا تقوى عليه سوى سلطة مركزية لها معنويتها الأخلاقية واقتدارها التنفيذي وثقلها الموضوعي داخل موازين القوى. وهذه السلطة سيمثلها الرّسول [99]. ومن أهمّ مهمّات هذه السّلطة أنّها تتدخّل إذا تزعزع اقتدار الجهات القضائية الأخرى فضعفت ولم تستطع درء الخطر الذي سيهدّد المجتمع المدني ويذهب بالوفاق والتعايش السلمي بحيث ترتّد الحركة الاجتماعية إلى اتجاه مغاير للتنوّع والانفتاح حينها فقط ستتدخّل السلطة المركزية لحماية المجتمع المدني. وتفوّت الفرصة على من يرغب في انهياره عن قصد أو من دون قصد. هذا ما أقرّته الصحيفة عندما قالت "على أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أواشتجار يخاف فساده فإنّ مردّه إلى اللّه وإلى محمد رسول اللّه" [100] يتبين لنا مما تقدّم ومن خلال سيرة الرّسول صلى اللّه عليه وسلم مع الأديان الأخرى أنّ الوئام هو الأصل. ولذلك الحّث عليه السيّرة بل يمكننا أن نصرح بأنّ سيرة الرّسول تدّل على أنّ الوئام سنّة حضاريّة كونيّة وأصل من أصول الاجتماع البشري ذي المنزع الإنساني. كما تدّل سيرته عليه السّلام على أنّ الأديان وأخلاق التديّن رافدان مهمان للوئام وليسا هما حجرة عثرة في طريقه. فالشّرط المهم أن يصدر المتديّن في سلوكه عن معرفة بمقاصد الدين. ولسائل أن يسأل

---

99) يتبين من خلال نص الصحيفة أنّ الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم تولى رئاسة المدينة باتفاق الطوائف المختلفة ونجد في الصحيفة ما يدل على ذلك راجع البند الأول والثاني والسادس والثلاثين، حميد اللّه محمد : من، ص 59الي 61.

100) من، ص62 وانظر ابن هشام : السيرة، ج، 2ص129.

فيقول : ما السّبب في ذلك الصّراع الذي قام بين المسلمين واليهود من قينقاع والنظير وقريظة والذي انتهى بجلاء لهذه الأطراف عن دولة المدينة ؟.

يبدو لي أنّ السبب الأصل والذي هو سبب مركّب [101] إنّما آلت تداعياته إلى الانقضاض على مشروع الوئام. فهذه الأطراف اليهوديّة نكصت ثمّ ارتدّت عن توجّه التنوّع والانفتاح والوفاء بالعقود. وهذه الأركان الثلاثة هي أساس نظام التّعايش فالمدينة وهي المعالم المهمّة التي أكّدت عليها الصّحيفة ورغبت في تثبيتها في الواقع وحرصت على جعلها إمكانيّة تاريخيّة مستمرّة. ذلك أنّ الوثيقة تنتصر لإجماع بشري متنوّع، فهي تقرّ بصراحة أنّ المواطنة من دون مشاركة (**تعدّد**) ومن دون تآلف ومن دون احترام للعقود إنّما هي وهم وضرب من التوحش لا علاقة له بالمصلحة الجماعية. ولهذا الملحظ أوكلت الصّحيفة حماية هذا الإمكان التاريخي إلى كلّ سكان المدينة من يهود ومسلمين ف "بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة" [102]. وبينهم النصر أيضا على "من دهم يثرب" [103] يبتغي اجتثاث التوجّه الوئامي. بل لقد ذهبت الصحيفة إلى أكثر من ذلك حيث حمّلت مساكني يثرب مسؤولية أن يحافظوا على هذا العقد حتّى خارج المدينة تقول الصّحيفة في بندها الأخير "وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنّه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم وأنّ اللّه لمن برّ واتقى" [104].

إنّ الحرص على أن يحافظ أهل يثرب على هذا العقد خارج المدينة يؤكد أنّ الصّحيفة تصدر عن مقصد يبتغي توسيع جغرافية الوئام رغبة في أن يتضوّع أريج هذا المشروع فيمتد وينزاح في المكان عسى أن تشمّه أنوف تنتصر للحقّ.

---

101) أقصد بالمركّب : أنّ هذا السبب يفضي إلى حيثيّات متعدّدة.

102) حميد الله محمد : م ن، ص62. وانظر ابن هشام، م ن، ج2، ص129.

103) ابن هشام : م ن، ص ن. حميد الله محمد، م ن، ص ن.

104) ابن هشام : م ن، ص ص 129–130. حميد الله محمد، م ن، ص62.

7) الوئام الصّعب

بدا تراجع اليهود عن الوئام الذي كان يجمعهم بالمسلمين بعد غزوة بدر-2-ها- والظّاهر أن هذا التراجع إنّما مردّه السياسة فالدّوافع التي حركتهم هي عديدة أهمّها :

- إنّ مؤسسة المدراس [105] خشيت على نفوذها الديني والاجتماعي فعادت إلى مبدإ الاختيار وراهنت على خطاب الإطلاق وبدأت تذكرّ بأنّ اليهود هم "محور الوجود وإنّ علمهم هو الحكمة وهو مصدر الخير ولذلك لم يتصوروا كيف ينزل الوحي ليقول لهم – وما أوتيتم من العلم الاّ قليلا- " [106]

- لقد ظنّ اليهود أنّ حلول المسلمين بالمدينة سيعود على فلاحتهم وصناعتهم وتجارتهم بالخير والنّماء الاّ أنهم وجدوا أنّ الأمر ليس كما تصوّروه. فالمسلمون لهم أولويات مقدّرة وليس بإمكانهم التوّسع في المعاش بل إنّ جمعا كبيرا من المسلمين يمتنع من أن يرابي من أجل بطنه أو من أجل الرفاه ويقتصر في معاشه على أقصى الضّروري. ثم لإنّ تجربة المؤاخاة فوّتت على اليهود ان يستعمروا المسلمين اقتصاديا حيث خفّفت هذه التجربة من وطأة الحاجة ورفعت الشّدة عن المهاجر الذي ترك ماله وموطنه. وزادت قافلة أبي سفيان وغنائم بدر من تذليل التّحدي بحيث ظهر لليهود أ محمّدا صلى اللّه وسلم نجح دينيّا وسياسيّا وها هو الآن ينجح اقتصاديّا وبأقل التكاليف.

- تحالفت اليهود مع قريش رغبة في محاصرة نفوذ المسلمين أو الإجهاز عليه. وكان اليهود يعلمون أنّ قريش لها حساباتها. فهي لا ترغب في نفوذ على المدينة حفظا لأمن تجارتها وحيوية معاشها.

---

105) المدراس اسم للمؤسسة اليهودية التي تعني بشؤون الدين وتعليم أصول اليهودية وآدابها.

106) عبد الناظر محسن : م ن ،ص 130.

– قدّر اليهود أنّ الرقم الصّعب في المعادلة الجديدة يتمثّل في صلابة التحالف الأخوي الذي تمّ بين المهاجرين والأنصار داخل المدينة. فمنذ أن تمّ ذلك التحالف شعر اليهود أنّ نفوذهم تقلص وأنّ الخطر يتهدّدهم ولاسبيل إلى الخروج من هذا المأزق إلاّ بالمراهنة على محاصرة المدينة وخنقها تمهيدا لهزيمتها. والفرصة سانحة فما على اليهود إلاّ أن يتحالفوا مع قريش ومن معها ممّن يبتغون هزيمة المسلمين. فالفرصة إذن سانحة والمشهد يغري اليهود باستغلال التّناقضات لصالحهم لا سيّما وجيوب الأعراب من حول المدينة لا يمثلون حجرة عثرة فمنهم من هو هامشي يطمع في الغنيمة ومنهم من مرد على النّفاق بالتعبير القرآني. وهكذا فإنّ العقل السياسي كثيرا ما تغريه الأحداث فيتعجّل ليختار الانقضاض على الخصم طمعا في السلطان الاّ أنّ الانقضاض كثيرا ما يفشل ويرتد بالخسران على صاحبه حيث تربك المخططات باقتدارات الطّرف المقابل أو بفعل أقدار لم توضع في الحسبان . نعم إنّ الذي غيّر وئام المبادئ والعقود هو السياسة وليست أيّ سياسة إنّها سياسة الرّغبة في الهيمنة. لقد تمركز اليهود حول ذاتهم وأرادوا إلغاء الآخر فهدّدوا مشروع الوئام. ورغم ذلك بقي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم متفائلا. وبقي يدعو إلى الوئام ويصله بقيمة احترام الإنسان. وأراد أن ينأى بالوئام عن حسابات سياسة الهيمنة ومغالطات "الإيديولوجيا" فكان عليه السّلام يصدر في وئامه عن حقيقة تقول – كلّكم لآدم وآدم من تراب–.

ظهر توجّه يهودي يسعى إلى إضعاف المسلمين وصولا إلى هزيمتهم حيث تذكر المصادر بشكل مكثف أنّ اليهود استهزؤوا بالاقتدار الحربي للمسلمين واعتبروا أنّ انتصار بدر لا يؤشّر على كفاءة عسكرية ثمّ انطلقوا بعد غزوة أحد إلى مكة وهناك قابلوا رؤوس قريش وأشهروا التحالف معهم [107]

---

107) الواحدي، علي بن أحمد : أسباب النزول، تحقيق، أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، 2003 م، ص ص 79–80 .

بل لقد مرّ بنو النضير إلى الفعل فحاربوا المسلمين وحاولوا اغتيال الرّسول والتحق بهذا التّوجه بنو قريظة. وبعد تفاوض حرص فيه الرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم على تجنّب القتال، كان إجلاء بني النضير. أما قريظة، فقد طلبت المكث في أرضها وتعاقدت مع المسلمين على شروط أغلبها من اقتراح قريظة. وأقر الرسول ذلك وأنفذه ولكن الامر لم يستقر، ولم يعد الوئام إلى سالف أيّامه حيث تحرك اليهود من جديد اثر ظروف معيّنة، فنكثوا العهد وأصرّوا على توهين أمر المسلمين. وأنتهت الاحداث باتجاه خيار التفاوض. وأثمر التفاوض عن صلح يتم بمقتضاه وللمرة الثالثة تغليب مبدإ السلم أي تجنّب القتال. إلاّ أن يهود خيبر وتحت ضغوط حيثيات الواقع انقسموا الى فريقين : فريق رضي بالمكث في أرض خيبر مع مباشرة فلاحتها على أن تكون غلّتها مناصفة بينهم وبين المسلمين وفريق اختار الهجرة وقد أقرّالرسول صلى الله عليه وسلّم هذا الحل [108] للأنه يستجيب لمبدإ دفاع المسلمين "عن مكتسباتهم ويضع اليهود أمام مسؤولياتهم" [109] والذي نتبيّنه من خلال هذا التدافع مع يهود المدينة هو أنّ الرّسول بقي يقدّر مواقفهم الاولى والتي كانت تدل على وئام صادق. ألم يكونوا يحتكمون اليه فيما شجر بينهم فكان يحكم بينهم بحكم التوراة ؟ ... ألم يعيشوا معه مواطنين غير مغلوبين على أمرهم ولذلك واصل معهم سنّة المجادلة بالحسنى عملا بقوله تعالى "ولا تجادلوا أهل الكتاب الّا بالتي هي أحسن" [110]. وواصل التعامل معهم وفق مضمون أية "واصفح الصفح الجميل" ولم تثنه الازمات عن الوفاء بما يقتضيه الوئام بحيث لم ينقطع عن

108) لمزيد التوسع في حيثيات هذه الاحداث : انظر، ابن هشام : م ن، ج3، من : ص 172 الى ص 346. وانظر، الطبري : م ن، 2/ من ص، 332 الى ص 552. انظر، ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة 1927 من، ص 140 الى ص 310. وانظر الواقدي، محمد عمر : المغازي، تح، مارسد جونس، عالم الكتب، بيروت، ط 3، 1984 م، 1 / ص 363-370. و2/ص 457-658. وانظر أيضا، الزهري محمد بن سعد : الطبقات دار صادر، للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1957م، 2/ص57 وص 106.

109) عبد الناظر محسن : م ن ص 130.

110) العنكبوت، 46.

محاورتهم الى أواخر العهد النبوي فكان يخرج بين الحين والحين من مسجده ليحاور اليهود .[111]

استنفذ الرسول ما في وسعه انتصارا لمبدإ الوئام فاعتبر أنّ القتال ليس حلاّ ورأى أنّ عقد الصّلح هو الخيار الامثل، ولذلك فإنه كلّما أعادت الحركة المعادية إحياء نفسها، كلما ضبط الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وأصحابه عن ردّة الفعل العنيفة في حين أنّ سياق الواقع لايتقبّل ذالك بسهولة. فراهن الجاهلية مفعم بالعنف وبضاعة السّلم والتعاقد نادرة فيه . وبرغم ذلك كان عليه الصلاة والسلام يختار السّير في طريق الوفاق والوئام متفائلا.

مع العلم أنه كان في الآن نفسه واعيا أشدّ الوعي بصعوبة الواقع "ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذالك من عزم الامور" [112]. إنّ تأصيل الوئام في ذلك الزّمن لم يكن أمرا هيّنا بل كان مهمّة صعبة، كلفت الرسول كثيرا من الصّبر والحزم والأناة والحلم والتبيّن والحكمة.

يتبيّن لنا من خلال تعامل الرسول مع اليهود أنّه كان يرغب في أن يفقه الجميع أنّ الوئام مشروع إنساني عظيم الشأن له آفاق رحبة واعدة، وهو مشروع يستحقّ أن يجد مقاما وسط تحدّيات واقع موسوم بغلبة الموروث وموسوم أيضا بمطامح محدودة ومتمركزة حول الأنا. والدليل على ذلك أنه وبرغم كل ما وقع فقد ترك اليهود المسالمين في المدينة يعيشون كمواطنين لا يمسّهم سوء فمن المعلوم أنّ يهود خيبر تمّ إجلاؤهم عن المدينة في خلافة عمر

111) البخاري، م ن، كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنة، باب قوله تعالى وكان الانسان أكثر شيء جدلا، وقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، حديث رقم 7347، ص 1328.

112) آل عمران، 186.

بن الخطاب بسبب غدر اقترفوه فانطلقوا من هنالك إلى تيماء وأريحا بعد أن استوفوا حقوقهم. [113]

8) الوئام من الجغرافيا إلى التّاريخ :

أ- يثرب أم المدينة ؟ علاقة التّسمية الجديدة بالوعي التّاريخي ؟

غيّر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إسم يثرب إلى المدينة [114] ومصطلح المدينة مفعم بدلالات خاصّة. ولعلّ الذي يهمّنا من هذه الدّلالات أنّ مصطلح المدينة يستبطن معنى الوئام ويتأسّس هذا المعنى على ثلاث مقاصد.

* يتمثّل المقصد الأوّل : في كون التّسمية تمنح للمكان بعد الإناسة. فهذه التسمية تحيلنا على الأنس والإجتماع والعمران، فهي تؤنّس المكان وتحدث بينه وبين الإنسان وئاما خاصا حيث يرتفع بهذه التسمية عن المكان وصف الوحشة والشدّة والفراغ والقفر إذ المدينة هنا يقابلها القفر الموحش أو البادية.

* ويتمثّل المقصد الثاني : في كون التّسمية تحيل على المجتمع المدني وما يستوجبه من نمط عيش جماعي أساسه المواطنة والمشاركة والتفاعل مع الآخر، وفق ما يحقق السيطرة على شروط الوجود الموضوعية وهذه السيطرة لن تكون إذا انعدمت أخلاق الوئام ولن تكون إذا انعدمت روح العقلانيّة والتآزر.

* ويتمثّل المقصد الثالث: في الإشارة إلى أنّ موطن الإسلام هو المدن ذلك أنّ المدن هي التي تصنع التّاريخ وهي التي يتجلّى فيها المعنى الحقيقي للاستخلاف فالمدن لعبت على امتداد الزّمان الدّور المحوري في صنع القرار

113) عبد الناظر محسن : م ن، 126. وانظر، البخاري : م ن، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، حديث رقم 3152. ص 579.

114) البخاري : م ن، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، حديث رقم 1871، ص 339.

وتوجيه الأحداث وباختصار يمكننا أن نقول أنّ التاريخ صنعته المدن ولقد كان هذا المقصد حاضرا في بنية الوحي الذي نزل على محمّد صلى الله عليه وسلّم . فخطاب القرآن يرغب في أن يجمع النّاس ليستمعوا إلى وصاياه ويتعاونوا على تحقيق الاستخلاف عبادة وإنجازا. ولذلك، فإنّه عليه الصّلاة والسّلام لمّا غيّر تسمية المكان من يثرب إلى المدينة فإنّه أسّس لنقلة نوعية ذات وعي تاريخي عميق. فمحمّد صلّى الله عليه وسلّم يبتغي التأسيس لوئام غير مغشوش تاريخيا فهو يريد أن يكون الوئام بين الناس داخل المدن المكتظة التي يرعى فيها حقّ الاختلاف. والمدينة هي موطن الوثنيّة العربية وموطن اليهوديّة من قبل وهي اليوم موطن الإسلام أيضا. ولم يأت الإسلام ليناقض السّياق التاريخي. بل جاء من أجل أن يراعي حركة التاريخ بحيث لن ينظر الإسلام إلى سكان المدينة من اليهود نظرة إقصاء بل العكس هو الصّحيح ذلك أنّ الصحيفة صرّحت بأنّ المدينة لن يكون لها وعي تاريخيّ إلاّ إذا تواءمت مكوناتها البشريّة أي أنّه يجب على مجتمع المدينة أن ينبذ الإقصاء والتهميش وأنّه لايأثم امرئ بحليفه وأنّ النصر للمظلوم" [115] وعلى مجتمع المدينة أيضا أن يقدّر بكل صدق شرعيّة الاختلاف. ولذلك ألحّت الصّحيفة في أغلب بنودها على هذا الأمر وبذلك يكون الرسول قد استدعى أصحابه وكلّ مجتمع المدينة إلى إمتلاك وعي تاريخ حين اعتبر أنّ الوئام الحق هو الوئام ذو الهويّة التاريخيّة أي أنّ الوئام ينبغي له أن يتّسق مع إنجازات الإنسان ببعديها العمراني والأخلاقي. وبعبارة أخرى فإنّ الوئام الحق هو الذي يحترم سنن العمران وأخوّة الإنسانية. وبناء عليه فلا مناص من سياق المدينة المفتوحة على التنوّع والتعدد. ذلك أنّ هذا السياق هو الذي نحتاج فيه إلى التعايش السلمي أي إلى الوئام. إنّه السّياق الكفيل بأن يكون الوئام خيارا مدنيّا ذا معنويّة أخلاقيّة تمتّن التعاون والاجتماع بين البشر وتحصّن مسيرة الإنسان في التاريخ من الانتكاس.

115) حميد الله محمد : م ن ص 62.

ب- تأصيل الوعي التّاريخي : وئام النبوّة أنموذجا

أراد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يلفت النظر إلى مسيرة الإنسان في التّاريخ فأعلم عليه السّلام معاصريه ومن سيأتي بعدهم بأنّ الوئام ليس مطلبا اقتضته الشروط السّياقية الاستثنائية للمسلمين بل هو مطلب تجدّرت شرعيته عبر مسيرة الإنسان في التاريخ . ولكي ترتبط هذه الفكرة بمعطى التديّن بادر عليه السّلام بربط رسالته بالخط التوحيدي الإبراهيمي فبشر بإلاه إبراهيم الذي يعبده اليهود والمسيح (116) كلّ ذلك من أجل التقريب بين اليهود والنّصارى والمسلمين وكلّ الموحدين ذلك أنّ اشتراك هذه الأديان في الدّعوة إلى التّوحيد وما يترتب عنه يجعلها مرتبطة بجامع مشترك يمنع تنافرها ويحرس تقاربها ويسهّل تعايشها ولم يقف الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحدّ الجامع بل أفاض قولا وعملا في الدّعوة إلى هذا الوعي التاريخي وفصّل ذلك تفصيلا مستعينا بالمشهد الحسّي التشخيصي فكان في وحيه ما يعرف بقصص الأنبياء وكان الرسول صلي الله عليه وسلم يناضل من اجل ان يصل هذا القصص الي الناس فكان عليه السلام يتلو علي مسامع الجميع خبر الانبياء من باب الكشف عن الثابت من خلال العابر ذلك ان في قصصهم عبر عديدة دقيقة وجليلة ومن هذه العبر ما يعود إلى صميم موضوع الوئام (117).

ذكّر عليه السلام العرب المشركين بالانبياء العرب انبياء اصحاب القرى ممن لم يذكروا في التوراة والانجيل (118) كما ذكر اليهود بانبياء بني اسرائيل وتوسع في ذلك بل أنّ قصص القران عن انبياء بني اسرائيل يتطابق الى حد

---

116) ميغولفسكي : أسرار الآلهة والديانات، ترجمة حسان ميخائيل إسحاق، ط 2، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 2006، ص 504.

117) يمكن استقصاء ذلك بالرّجوع إلى قصص الأنبياء في القرآن إذ لا يمكننا الدخول في التفصيلات حتّى لا نخرج عن موضوع بحثنا.

118) أنظر. الجابري محمد عابد. م ن، ص420.

كبير مع ما جاء في التوراة والانجيل [119] كما ذكر عليه السّلام بعيسى وما يتعلّق بنبوته وموقعه في التاريخ ولم ينس عليه السلام ذكر الانبياء الاقدم تاريخيا كآدم ونوح. ولقد اكد علي بيان ان التواصل حصل بينهم جميعا فهم "اخوة لعلات امهاتهم شتى ودينهم واحد" [120] اتصلوا سندا وتواءموا فعلا وعملا. نعم لقد تعدد الوحي من لدن ادم الي محمد صلي الله عليه وسلم ولكن لا ينبغي ان يفهم هذا التعدد علي كونه انشطارا او تشضّيا او تنافرا او اختلافا بل ينبغي ان يفهم الوحي علي كونه كلاما واحد تجلى عبر رسائل تدرجت في الزمان وتعددت محايثة لخطي الانسان بغية التمكين لتكوينه المادي والروحي. ان تعدد الوحي هو تعدد مسار لا تعدد انقلابات "ثم ارسلنا رسلنا تترا" [121]. أي أنّ تعاقب الأنبياء في الزّمان والمكان لا يكدّره تباين في مسالة الوئام فكلهم يدعون إلي التوحيد وكلهم يشرعون للتعايش السلمي وكلهم يدعوا إلي الاحسان وإلي أمهات الأخلاق ذات القيم التي لا ينال منها الزمان والتي تكون غالبا السبب الأصل في الاجتماع البشري وفي صنع التاريخ [122] إنّ سيرة محمد صلي الله عليه وسلم لا تخرج عن هذا السياق العام والكوني اذ هي تنتظم ضمن هذا التوجه الرسالي الا انها تعي بعمق تحول اللحظة التاريخية فلم يات محمد عليه السلام ليرفض ماضي البشرية او ليعاديه او ليسفهه بل جاء من اجل الوصل والتكميل ومن اجل مزيد رفع الاصر عن الانسان. لقدد جاء محمد صلي الله عليه وسلم ليتواءم مع حركة النبوات فقال "انّ مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فاحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة قال فانا البنة وانا خاتم

---

119) م ن. ص259.

120) البخاري، م ن. كتاب أحاديث الأنبياء باب واذكر في الكتاب مريم اذا انتبذت من اهلها حيث رقم 3443، ص634.

121) المؤمنون، 45

122) عبد الرحمان طه : روح الحداثة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2006، ص.204.

النبيين" [123] فاذا كانت تعاليم المسيح قد بنيت علي تاويل جديد للوصايا العشر التي تشكل هيكل شريعة موسي [124] وهو تاويل اقتضاه تغير اللحظة التاريخية فان تعاليم محمد صلي الله عليه وسلم ستضيف إلي ارث النبوات "حقائق اخرى كانت ضرورية للبناء الروحي والسياسي للمجتمع البشري" [125] فمن قبلها فله ذلك ومن رفضها فلا يكره عليها والعقد بين الجميع وئام التعايش وفق سنة الحق والواجب حتي لا يرتد المجتمع الي التوحّش.

ج- الوئام وتحيين تاريخ الأنبياء

حرص محمد عليه السلام على أن يستثمر زمن النبوات في الحاضر. فإبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة وهي تشهد لهما بحضور متواصل غاب الرجلان عن مكة بجسديهما لكنهما يعيشان في مكة روحا وهمة وفعلا تاريخيا. وإنّ دعاءهما لا يزال حيّا ولا يزال يجلب بركة المعاش الى مكة ولا يزال يفيض عليها روح السلام والامان "واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا امنا وارزق اهله من الثمرات" [126]. وهذا موسى يحتفي به في المدينة حيث يقر الرسول صلي الله عليه وسلم صوم عاشوراء احتفاء بذكرى نجاة موسى من اعدائه [127]. وهذا عيسى بن مريم عليهما السلام ينزل إلى الارض ويلتقي بامة محمد من اجل الانسان قال صلي الله عليه وسلم كيف انتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم [128] وقال عليه السلام ايضا مبينا مهمة عيسى "والذي نفسي

123) البخاري : م ن. كتاب المناقب. باب خاتم النبيين حديث رقم 3535.
124) ميغولفسكي : م ن. ص586
125) م ن. ص587.
126) البقرة، 126.
127) العسقلاني : م ن.م 7.ص ص.322-323. وانظر. البخاري. م ن. كتاب الصوم. باب صوم يوم عاشوراء. حديث رقم 2004، ص361.
128) البخاري : م ن، كتاب الأنبياء. باب نزول عيسى عليه السلام. حديث رقم3449، ص.635.

بيده لا يوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتي لا يقبله أحد" [129].

ولمزيد حفظ هذا التراث النبوي المفعم بمعاني الوئام خصّب الرسول صلي الله عليه وسلم أحاديثه بعبر النبوات وفسّر للنّاس ما فيها من نذر وعظات وعلم وحكمة واستثمرها في تربية أصحابه ولذلك فلا غرابة أن نجد في صحيح البخاري مثلا كتابا بعنوان كتاب أحاديث الأنبياء فيه من مناقب الانبياء ومواعظهم وحكمهم ما يدعم حبّهم وحب ما دعوا اليه.

د- الوئام يتّجه صوب الأقصى : وئام النبوّة يتفاعل بوحدة الأديان.

-*-الاسراء والمعراج : الرّمز والتّاريخ

- الإسراء ودلالة الوئام

قال الله تعالى "سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الي المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو السميع البصير" [130]. انطلقت الرحلة ذات الاتجاه الأفقي الممتد خطّه من مكة إلى القدس والتي سمّيت بالاسراء [131] تبين عن مشهد وئامي مفعم بالرمزية قدّاس خاص يحضره كل الانبياء للمشاركة في صلاة جماعية بامامة محمّد صلّى الله عليه وسلم [132] ولعلّي افك الرمز فاقول إنّ المشهد ينبئ عن كون الانبياء اخوة يعبدون ربا واحدا ويعرفون بالله رب العالمين وهم جميعا يسلمون في هذا القداس العالمي

---

129) البخاري : م ن، كتاب البيوع. باب قتل الخنزير، حديث رقم 222، ص 396

130) الإسراء : 1

131) الإسراء : "تواردت عليه ظواهر الاخبار الصحيحة من الاخبار والسنة وليس هو بالمستحيل عقلا" العسقلاني، م ن، م7، ص237، كما ذكر الرّازي أنّ الإسراء ممكن عقلا. انظر الرازي فخرا لدين التفسير الكبير.ج20.م19-20 دار إحياء التراث العربي، ص 147 بيروت، لبنان.

132) العسقلاني : م ن .م7. كتاب مناقب الانصار. باب المعراج. ص249. وابن عاشور محمد الطاهر،م ن.ج15. ص20.

هذه المهمة لمحمد صلي الله عليه وسلم يسلمونها له في الارض بل في مكان معلوم من الارض هو بيت المقدس فما دلالة ذلك. وبعبارة اخرى لماذا بيت المقدس.ولماذا عاد الانبياءالي الارض

– تعد بيت المقدس رمزا لأطوار نبوية معلومة فهو المكان "الذي تداولته الرسل من قبل" (133) أسّسه ابراهيم عليه السلام وبنى فيه داوود عليه السلام محرابه واقام فيه سليمان عليه السلام الهيكل وتعبّد فيه كثير من انبياء بني اسرائيل من بعد داود وسليمان ولا ننسى انه مهبط شريعة موسى ومسرح دعوة عيسى (134) وهو ما يجعلنا نستنتج ان المكان غني بالدلالات مفعم بالرموز وشاهدعلى التاريخ.

– لماذا أعادت الحادثة الأنبياء إلى الارض. وما دلالة ذلك ولماذا امتزج الماضي/ الانبياء بالحاضر/ محمّد صلى الله عليه وسلم. يتبادر الي الذهن ان المشهد يصرح بان محمدا صلي الله عليه وسلم هو المكلّف بمهمة احياء الاتجاه التوحيدي في الارض.انه المؤتمن علي ارث النبوة في الارض فهو الذي سيعرف البشرية بالله وسيرشدها في مستقبل ايامها بالوحي الخاتم الي ما فيه صلاحها (135) والذي يهمنا هنا هو أنّ الوئام يتّجه صوب الاقصى الى حد التفاؤل بوحدة الاديان.ان مشهد هذا القداس الكوني يشير الى ان هذا التفاؤل هو امكان بدا رمزا ويمكن أن يتحوّل الي واقع والدليل علي ذلك ان الحادثة تبين ان الله اراد "ان يجعل من الاسراء رمزا إلى ان الاسلام هو جميع ما جاءت به شرائع التوحيد" (136) فلا صراع بين الديانات فهذا محمد صلي الله عليه وسلم يؤمن بجميع الرسل ويصدق بما سلموه له بل ويعود من هذه الرحلة ليدعو

133) ابن عاشور محمد الطاهر : م ن، ج15، ص7.

134) م ن، ص ص 16–17.

135) ذهب إلى هذا الرأي كل من محمد اقبال في تجديد الفكر الدّيني وكذلك علي شريعتي في إحدى رسائله.

136) ابن عاشور محمد الطاهر : م ن، ص15.

الجميع في الارض الى ظاهرة دينية كونية يكون الإنسان فيها مصدقا بجميع الرسل لا يفرّق بين احد منهم.

- المعراج : ودلالة الوئام

لمزيد تمثل أن تكون النبوات/الاديان اداة وصل تعمل علي تفعيل الوئام كان المعراج. والمعراج رحلة ذات اتجاه عمودي تتطاوح ابعاده لتخترق المجرّات المعلومة وصولا إلى مقام القرب "سدرة المنتهي". الاصل في المعراج وفق ما اراه ان تتضح صورة الوئام بين الانبياء. فَهم اجيال متعاقبة تنتمي الى عائلة واحدة فعلت فعلها في التاريخ ولا يمكن ان ينكر هذا اي عاقل وما محمد صلي الله عليه وسلم الا احد افراد هذه العائلة (137) ممن سيدعو البشر الى مواصلة مسيرة النبوة في التاريخ ولذلك فانه بعد أن سلّم على الأنبياء وسلّموا عليه وبعد ان باركوا سعيه وبعد ان بلغ سدرة المنتهى حيث مقام القرب في لحظته العنفوانية وبعد ان أظهر للجميع امكان ان ينتصر الانسان على الزّمان والمكان. وبعد ان وقف امام الله بوعي تام كامل.بعد كل ذلك لم يخلد محمد صلي الله عليه وسلم إلى الحلم والاسطورة ولم ينهار وعيه التاريخي ولم ينس المهمة المصيرية الموكلة الي الانبياء بل عاد بها الي فضائها الحقيقي الذي هو التاريخ اذ ان اصل الايمان وصميم العبادة ان يكونا في التاريخ. عاد محمد صلي الله عليه وسلم بعد ان اخترق بمعراجه الابعاد والاكوان وبعد ان اضحت المعرفة مشاهدة عاد ليوقظ عوالم الروح علي وجد الشوق الي لقاء الله ولكن في الارض ذلك ان تجربة الشوق الي لقاء الله ستكون في الارض في التاريخ حيث الامتحان والابتلاء.عاد محمد صلي الله عليه وسلم ليوجه وعيه الشهودي صوب الانسان حيث لن تقف القيمة الروحية للاسراء والمعراج عند حدود التكريم والمعرفة ولن تقف عند حدود الاستغراق والتامل بل انها ستستثمر بجدية

137) نص المعراج كما أخرجه البخاري يشير الي هذه الحقيقة فالرسول يصرح بأنّه التقى بأخيه النبي فلان والتقي بابيه ابراهيم وادم يتحدث عن محمّد بكونه ابنا.

منقطعة النظير لما يفيد ويدعم التفاعل مع الانسان ذلك ان قربه من الله زاد من اقترابه للانسان وزاد من انتصاره للوئام حتى انه لما دخل مكة فاتحا لم ينسه الانتصار ان يعلن العفو العام بلا شروط حتي انه لم يدع من بقي علي شركه من قريش الي الدخول في الاسلام ثم اكد ان مكة بلد حرام لا يراق فيه دم ولايتقاتل الناس فيه الي يوم القيامة انها المدينة النموذج لما يجب ان تكون عليه كل مدن الدنيا . وعاد الرسول صلي الله عليه وسلم الي المدينة لتبقى سيرته العظيمة وفية لقيمة الوئام وخلق التالف حيث انتقل الي جوار ربه ودرعه مرهونة عند يهودي فقد اخرج البخاري في صحيحه من طريق عائشة "قالت توفي النبي صلي الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير" [138] قال العسقلاني "ووجه ايراده هنا الاشارة الي ان ذلك من اخر احواله وهو يناسب حديث عمرو بن الحارث في الباب الاول انه لم يترك دينارا ولا درهما" [139] كما اورد هذا الحديث صاحب الشمائل فقال "... ولقد كان له درع فما وجد ما يكفها حتي مات" [140] ولا ننسي ان نذكر ان هذا الحديث قد رواه الترمذي [141] والنسائي [142] وابن ماجة [143]. وقد اوردت هذه النقول حتي لا يقال بان الحديث موضوع. والذي يبدو من خلال ما تقدم ان الرسول الله صلي الله عليه وسلم لم يزور عن التعامل مع اليهود المسالمين ومقصد الحدث أنّه يجوز التعامل مع اهل الكتاب وفق ما تقتضيه المعاملات الجارية بين الناس علي سنن الهدي والمعروف. ولكن الذي يهمني اكثر هو الدّلالة الإنسانيّة للحدث...درع النبي مرهونة عند مواطن بالمدينة لا يدين بدين الاسلام. فماذا

138) البخاري : م ن. كتاب الجهاد والسير.باب ما قيل في درع النبي. حديث رقم 2916 ص536. واظر م ن. كتاب المغازي. باب - بغير ترجمة - حديث رقم 4467- ص803

139) العسقلاني : م ن.م7. ص758.

140) الترمذي أبو عيسى محمّد بن سورة : الشمائل المحمّدية والخصائل المصطفوية. تح الحاج احمد يوسف بن محمود، ط1، مكتبة العلم الحديث دمشق، 2003ص 205.

141) الترمذي : السنن. حديث رقم 1215.

142) النسائي : السنن، حديث رقم 4610

143) ابن ماجة : السنن، حديث رقم 2437.

يعني ذلك. لقد آثر محمد صلي الله عليه وسلم الي اخر حياته ان يتواصل بإنسانيّة مع اصحاب الاديان الاخرى فلم يستنكف حتي بعد انتصاراته الميدانية من ان يتعامل مع المتدين بدين اخر وفق ما يقتضيه التعاون... ينتقل النبي الي جوار ربه ودرعه مرهونة عند رجل من عامة اليهود. ان هذا بحسب فهمي هو الدليل علي كمال الوفاء للوئام والوفاق بين الأديان. ان في حيثية هذا الحدث رسالة إنسانيّة تقول "ان المجتمع البشري ليس هو طوائف وضرائب انه اولا وقبل كل شيء شبكة من الناس مترابطين روحيا في رحلة تدعي حياة" (144).

144) خضر مها صالح : عن ترجمة له لمقال صدر في مجلة - Ode Magasine – عدد نوفمبر 2005 بعنوان، Your World In 2015 مجلة الثقافة العالمية، العدد 154، نوفمبر– ديسمبر2007، ص23.